

الفصل العاشر

وادي الدواسر

١- عتبة الوادي:

كنا نقرب الآن بسرعة من غاية مسعانا، وادي الدواسر الغامض العظيم. الذي لم تكتحل برؤياه من قبل عينا أيّ رجل أبيض، ولكن رغم تأكيد رفاقي لم يكن في المنطقة المحيطة بنا ما يوحي بوجود قريب لحوض أو معالم لوادٍ تمكن مقارنته بمنخفض الباطن الشمالي. وكانت تجري بطول جانبي وادي غدّير -الذي خيمنا فيه في تلك الليلة- الخطوط الطويلة المتوازية للبياض من جانب وطويق من جانب آخر. وكانا يجريان نحو الجنوب على مدّ البصر كما كانا يفعلان لمسافة ٢٥٠ ميلاً، أي ابتداءً من وصولنا لإقليم الخرج. وكان الاختلاف الملحوظ الوحيد هو زيادة وعورة الإقليم، بينما كان سطح طويق حتى الآن ممهداً. وتحلّل طويق الآن إلى عدد من سلاسل التلال المتوازية التي تحتضن فيما بينها أحواضاً تحمل مياه تصريف الإقليم نحو الجنوب. وكان حوض مُرّان يجري عن يميننا مباشرةً من خلف سلسلة تلال أم الجدر، وكان من ورائها شعيب حُمّام، ومن وراء ذلك أيضاً شعيب المراغة الذي يغذي الوادي مباشرةً.

كانت تقع أمامنا على بعد ثلاثة أميال مستوطنة حمام التي وقفنا بها لنسقي الإبل صباح اليوم التالي، وهي من ناحية إدارية تابعة لإقليم وادي الدواسر، وتكوّن له قاعدةً أمامية متقدمة. وتقع المستوطنة كما يوحي اسمها في وادي حمام على بعد ميلٍ شرق نقطة اقترانه مع حوض مُرّان، في الموقع الذي يخرج فيه من مرتفعات طويق، وعلى بعد ميلين أعلى نقطة اقترانه مع شعيب غُدّير. ويجري ابتداءً من هذه النقطة الشعيب المتحد تحت اسم حمام في اتجاه الجنوب الشرقي ثم

عبر فجوة لها دعامات في البياض تسمى البازومين. لا يمكن لأحد أن يتخيل ما هو أكثر بؤساً من بقايا هذه المستوطنة البالية التي شهدت فيما مضى أياماً خيراً من هذه. وفي وسط المستوطنة يوجد قصر العد وهو مسكن الأمير المحلي، ويطل عليه جرف صخري مسنّن يقع في مهد مجرى مائي ويرتفع لخمسین قدماً، وتمتدّ خرائب بالية لقلعة مهجورة تسمى النخ. وكانت تمتد بجوار القصر حديقة تحتوي على تسع من أشجار النخيل واثنين من الأثل، ويحيط بها حقل تبلغ مساحته بعض الأفدنة وبه جذامة القمح بعد أن تمّ جمع المحصول.

ويسم الحد الشرقي للمستوطنة «قصر» ما يسمى بلاد الشنة وتتصل به رقعة زراعية أهمها بستان به سبع نخلات. وكانت هناك خرائب لمنازل وآبار^(١) في ثلاث مواقع أخرى، إضافة لحوالي سبع آبار تستخدم لريّ حوالي خمسين فدناً من أرض الحبوب، والتي توجد فوقها مستعمرة صغيرة بها نحو من خمسين فرداً من فرع الرشيد من الوداعين، ويعيشون حياة شبه رعوية تحت إمرة أميرهم العبد عبدالرحمن. وكان هذا الشخص الذي تعوزه الجاذبية أحد أفراد الجمهرة الصغيرة الذين خرجوا يحدّقون فينا فاغرين أفواههم عند وصولنا، ولكن لم تكن هناك دعوة لتناول القهوة، فبقينا في المكان للفترة التي تسمح فقط بسقيا الحيوانات. ولم نكد نغادر المكان حتى بدأ طامي الجائع دائماً تعليقاته القاسية حول فشلهم في استضافتنا، وسرعان ما لحق بنا الأمير ليقول إنه سيصحبنا حتى موقع النزول للقليلة. ولاشك أنّه كان يرمي لأن يصيب لدينا إفطاراً أو ينال عائداً مادياً على

(١) أربعة قصور تسمى مسحايات بالقرب من النخ، وهناك آبار خربة وقصور تسمى بلاد الحسين في اتجاه أعلى النهر؛ وآبار مغرة الخربة في الطرف الغربي للمستوطنة. (المؤلف).

ذلك، ولكن ظنّه هذا كان بعيداً عما يظنّه مضيفه. ومضينا وهو معنا في طريقنا وحرارة الطقس تتعاضد، فاقترب ابن جلهم مني راكباً ليسألني: «ألم يحن وقت التوقف لتناول الإفطار؟» فأجبت بصوت عالٍ حتى يسمعي الأمير: «كلا، ألم نتوقف قبل برهة وجيزة في حمام لتناول الطعام؟ لماذا إذن نتوقف ثانية؟ لن نفعل حتى نتجاوز وقت الظهيرة» بعد قليل بحثت دون جدوى عن الأمير، وتوقفنا لتناول إفطارنا من دونه.

لزمنا جنب طويق بعد أن تجاوزنا مجرى حمام، وكانت السلسلة العارية للجبال الخارجية لطويق تنحدر إلى أسفل نحو بطن الوادي عن يسارنا، وأشاروا لي في أحد المواقع عن نقطة البداية لطريق مباشر يجري عبر الأراضي المرتفعة نحو السُّلَيْل. وهو طريق أكثر صعوبة ولكنه كان مفضلاً في زمان مضى لأنه كان آمناً ضد النهاب والسلاّب مقارنةً بالطريق المنخفض الذي اتبعناه بطول حافة السهل، الذي كانت تقاطعه بعد مسافات منتظمة جداول تصرف المياه من مجاري طويق. وتوقفنا بجوار أحد هذه الجداول في موقع رملي منخفض تغطيه الشجيرات لتناول الطعام وللقيولة. كل هذه الأرض تتصرف مياهها للخارج نحو شعيب حمام الذي يخرج عبر فجوة البازومين. وكان مخرج الشعيب يقع قبالة مخيمنا. وبعد أن سرنا قليلاً عبرنا مرتفعاً معتدلاً يسم الفاصل بين تصريف حمام وذلك الذي يسيل نحو الجنوب نحو حوض تغطيه الشجيرات ويسمى المحتفر، وقد تجلّى لنا الآن على البعد في الزاوية التي تكونت بين طرف صخور البياض وسلسلة تلال عرضية تسمى النعجانية تعترض الوادي فيما يبدو من جهة الجنوب. وتتخلل هذه السلسلة العرضية - بعد فواصل - شرائط من الرمال المتحركة الثقيلة التي تتكوّم على جانبيها.

فور أن عاودنا المسير وقبل أن نبليغ رجم المنسفة، وهو نصب من ركام حجارة وضع على نتوء خفيض لطويق ليسم نصف المسافة بين حمام والسُّلَيْل، ومررنا بمنخفض كثيف الشجيرات يسمّى حجلة آل مرة ليزكّر بحادثة في إطار النزاع الطويل المرير في المنطقة.

كانت المنطقة المجاورة لحمام في وقت أكثر حداثة - في رمضان عام ١٩١٦م - مسرحاً لمواجهة حادة بين فصيل من قوات ابن سعود وعصابة من إحدى القبائل قاموا بقيادة زعيمهم بنهب قافلة متجهة نحو الشمال، باتجاه السُّلَيْل. ولقد وصف لي إبراهيم ورشيد، وكان كلاهما في تلك الحملة المكونة من ٢٠٠ جواد و ٤٠٠ من الإبل تحت قيادة ابن عم ابن سعود: (عبدالعزیز بن مساعد)، وصفا لي من الذاكرة المعركة أمام جمع من المستمعين المعجبين. أوضحوا مواقع الأطراف المتحاربة، وشرحا كيف أنّ فرسان ابن سعود اجتاحوا قطاع الطرق بعد مقاومة يسيرة.

انضمّ إلى مجموعتنا أثناء النهار شخص مبهج يدعى حسن، من قبيلة عرجا. التقى بنا مصادفةً في حمام أو جوارها فتطوّع بأن يضمّ إلينا بوصفه حادياً ورفيقاً. كان الرجل كثير التجوال في الصحاري الجنوبية وعلى معرفة لصيقة بنجران وبالمناطق التي تقع بينها وبين الوادي. ولقد كان ذا نفع عظيم لمجموعتنا التي فعل الكثير ليفعمها بالحيوية والبهجة بفضل روحه البدوية المرحّة وقصصه عن تجاربه. كان صوته الرقيق وطباعه السهلة تقف على طرفي نقیض مع بنية ضخمة وملامح متجعدة إذ تركت سنواته الخمسون التي عاشها مجاهداً - رغم المعوقات - في حياة الصحاري القاسية أثرها البين على وجهه. نقل إلينا حسن أخبار العراك الذي

نشأ مؤخراً في الصحراء جنوب الوادي، إذ غارت عصابة من اثني عشر رجلاً على أربعة رجال تمكنوا من تخليص أنفسهم من ذلك الموقف العسير دون أن تتعدى إصاباتهم بعضاً من عيارات نارية. وتباهى حسن -ضمن إنجازات أخرى- بمعرفة لا تجارى حول أنواع الإبل، وحدثنا عن أربعة منها، العمانية: التي تأتي من الصحاري الرملية المجاورة لعمان وهي في الغالب خفيفة البنية وسريعة ولونها قاتم، وهناك الإبل الحرة: وهي خشنة الوبر وتأتي من شمال الجزيرة العربية ويربها عنزة والحويطات في مناخهم المعتدل. والثالثة: عرقية وهي تأتي من أصقاع بيشة ونجران. وهي لا تستطيع تحمل البرودة، ولهذا فهي لا ترى إلا نادراً في الأقاليم العليا. وأخيراً الدراعية التي تربى في الجنوب ناحية حضر موت، وهي عينة صفراء اللون أو أن لونها بُني غامق، وقد يعود اسمها هذا للقرية التي جاء منها أسلاف ابن سعود^(١)، أو لاسم عاصمتهم القديمة في وادي حنيفة. وأفادنا حسن أن هذه الأنواع عندما تفارق مواطنها الأصلية فإنها بالضرورة تتهجّن مع بعضها البعض ومع عينات أخرى أدنى منزلة.

وإن أي عربي محظوظ يمتلك ناقة لها القابلية للتهجين وإنتاج مطايا ذات صفات ممتازة فهو يهجنها مع أيّ جمل جيّد قد يجده تماماً كما يفعل صاحب الفرس الوضيعة إذ يغشيها لفحل ذي مزايا جيدة، ويؤكد حسن أن العينات النقية غير مختلطة الأنساب لا يمكن أن تخطئها العين.

(١) الواقع أن جد الأسرة السعودية الكريمة جاء من شرقي الجزيرة العربية، كما هو موضح في كتب التاريخ المحلي، وليس كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

وبعد أن أضعنا كثيراً من الوقت في سقيا الإبل بحمام وتوانينا تكاسلاً لساعات خمس دون أن نبرح موقع القيلولة وجدنا أنفسنا بعيدين من طيِّتنا لذلك اليوم عندما خدّرتنا أشعة الشمس المائلة نحو المغيب، وأيقناً أننا لن نبلغ المكان الذي نريده قبل حلول الظلام. لذا قررنا أن نقضي ليلتنا في أول موقع مناسب بحيث يكون بيننا وبين السُّلَيْل عند مغادرتنا له في الصباح التالي رحلة قصيرة. وتنحيّاً جانباً مرتقين جانب شعيب يسمى أم الكداد، ونصبنا خيامنا في وسط مجموعة روابي منخفضة تسمُّ حواف مرتفعات طويق. وصعدت أنا إحدى هذه الروابي لأرى المدينة التي نطمح بلوغها، ولكن لم أر سوى الامتدادات العارية للبياض من جانب وطويق والنعجانية من الجانب الآخر. وكان هناك أخذود بين الأخيرين قالوا لي أننا سنسير فوقه في الغد لنندلف إلى الوادي نفسه.

وفي صباح اليوم التالي سرنا لمسافة قصيرة تبلغ ستة أو سبعة أميال فوق أرض وصفنا من قبل معالمها وصفاً دقيقاً حتى بلغنا مكاناً محصوراً بين طرف طويق الجنوبي وسلسلة النعجانية المتداخلة معه. وصعدنا الممر بينهما إلى أعلى، وكان الممر يضيق سريعاً كلما تقدّمنا حتى بلغنا سرجاً خفيضاً يربط بين السلسلتين مكوناً فاصلاً بين شعيب شعدية الذي ينحدر مصرفاً مياهه نحو الشرق في اتجاه حوض محتفر، وشعيب السلام الذي ينحدر لتصرف مياهه في الاتجاه المعاكس نحو مجاري الوادي. وكان الوادي أمامنا وكلنا لم نكن نراه لوجود نتوءات خفيضة هي حاجز النعجانية. وصعدنا جانب الحاجز عبر طريق مطروق قادنا نحو قمته حيث تحقق طموحي. وكان وادي الدواسر يقع أمامي دون جنة تحول بيني وبينه، وشاهدت على جانبيه بساتين نخيل السليل الخضراء.

٢- السُّلَيْل:

لم يكن المشهد الممتد أمامنا جميلاً أو مثيراً، ولكن رؤية واحة كبيرة في خضم الصحاري أمر يبهج المسافرين المكدود. ولم نكن في عجلة من أمرنا لذا توانينا في ذلك الموقع المميز من رابية النعجانية لنملاً أعيننا من ذلك المنظر الأخضر، ولمعرفة تفاصيل المنطقة كان الأمر بالنسبة لي على الأقل فتحاً جغرافياً يسمُ مرحلة هامة في تاريخ التوغّل في الجزيرة العربية. وكان إقليم السليل معروفاً بالاسم فقط للطلاب الذين يدرسون جغرافيا الجزيرة العربية، دون أن يكون هناك سوى القليل من الإلمام بطبيعة الإقليم وسكانه. وكان خلاصة ما يُعرف عن المنطقة قد تمت صياغتها بحذر لتقرأ كالتالي: «يقع هذا الإقليم إلى الجنوب الشرقي من منخفضات الدواسر والمقرن الذي لا يسكنه أحد رغم إنتاجيته. وإلى الجنوب منه -من خلف المرتفعات- تمتدّ الصحراء العظيمة. إنّ الإقليم ذو طبيعة جبلية في بعض أجزائه وينحدر لتتصرّف مياهه نحو الجنوب الشرقي، ولكن لا يُعرف عنه سوى أنّه صقع رملي وأنّ به حوالي اثنتي عشرة قرية صغيرة كلها فقيرة وبدائية. ويعد البعض السليل جزءاً من إقليم وادي الدواسر».

كان المعلم الرئيس للمشهد الكثيب المحيط بنا هو واحة السليل نفسها، وهو خطّ من خضرة عبقرية تمتدّ لحوالي ميلين نحو الجنوب الغربي من الموقع الذي كنا فيه في حوض رملي تكوّن بالتقاء أودية في قلب مرتفعات طويق. وكان أحد هذه الأودية هو وادي الدواسر نفسه الذي يشقّ الهضبة الحاجزة إلى قسمين من الغرب إلى الشرق، والوادي الآخر هو وادي المجمع^(١) الذي كانت له دلتا فسيحة

(١) المجمع: واد يبعد عن السليل خمسين كيلاً شمالاً غرب، وهو غير المجمع المدينة المعروفة بمنطقة سدير.

ابن خميس، معجم اليمامة، ج ٢، ص ٣٤. (المراجعون).

تبرز نحو الشمال . وكانت قاعدة مثلث الدلتا هي الوادي ورأس المثلث في الشمال في سلسلة المراغة . وهناك على البعد في ناحية الغرب ، على بعد اثني عشر ميلاً كانت مرتفعات خشم سواد ومرتفعات خشم العمور العابسة المتجهمة تواجه بعضها بعضاً وتفصل بينهما فتحة عرضها ميل واحد في حروف طويق الغربية ، وعبر هذه الفتحة يمر وادي الدواسر مخترقاً الحاجز . وتنحدر الكتلة الجنوبية للهضبة إلى الأعلى ، من الجانب الأيمن لمجرى الوادي عبر سهل لطيف الانحدار حتى تبلغ قمة المرتفعات التي تنحدر من بعد إلى الأسفل من الغرب للشرق .

أما الجزء الشمالي الذي يتجعد بسلاسل تلال مسننة فهو يكون ساقى الخوض المثلث الآخرين ملتقاً حول الدلتا من خشم سواد إلى سلسلة النعجانية .

وتتكون منطقة السليل من أربع قرى متوسطة الحجم ، ومن مجموعات عديدة من البيوت التي لا أهمية لها ، وبعض القصور المتباعدة المنعزلة التي تتناثر في حواف حزام النخيل الواقع في الجانب الأيسر لمجرى سيول المجمع الرملي العريض ، بين نقطتي لقاء فرع شعيب سلام بالمجرى . ولا يتعدى متوسط عرض الحزام ربع الميل ، بينما يبلغ طوله حوالي الميل . وتقع قرية الفرعة التي تسمى أيضاً الضويان وفقاً للعادة التي تُعرف فيها المستوطنة باسم العنصر الغالب من سكانها . وتقع القرية في الطرف الشمالي الغربي للحزام ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٣٠٠ نسمة . وعلى الطرف الآخر - على جانبي سلسلة النعجانية البارزة - تقع قرى صباحا أو (المحمد) ودهلة أو (الحنيش) . وتقع هذه القرية الأخيرة في صدع من السلسلة ، وتحيط كتلة كثيفة من النخيل بحافتها الخارجية . وتتنازع هاتان المستوطنتان منذ القدم على سيادة الواحة . وتفصل بينهما دعامات صخرية رأيت على قماتها بقايا متاريس وضعت في الأيام الخالية نتيجة للخصومات وللصراع الذي لم تمت جذوته حتى الآن . ويسكن في كل من المستوطنتين حوالي ٥٠٠ نسمة . أما القرية الرابعة فهي

== قلب الجزيرة العربية ==

مقابل أو (سويلم)، ويبلغ تعداد سكانها ٣٠٠ نسمة، وتقع بين طرفي الواحة في حافتها الشرقية. أما المجموعات السكنية الأقل فهي قصر الخُليف، ونخل العنقة، والشرق وغيرها. ويبلغ تعداد سكانها مجتمعةً حوالي ٤٠٠ نسمة، وهي تعد فروعاً أو توابع للمستوطنات الكبيرة وليست وحدات قائمة بذاتها.

ويبلغ التعداد بكل مستوطنات المنطقة نحواً من ٢٠٠٠ نسمة جزء منهم من العبيد المحررين، وتخطى عددٌ منهم حاجز الفقر بسبب تجارة اللؤلؤ. بيد أن هذا العدد لا يتضمّن بالطبع العناصر البدوية^(١) الذين قد يساوي عددهم أضعاف أعداد مجموع المقيمين. وهؤلاء يعتمدون على الواحة ويعودون إليها موسمياً لاستلام حصصهم من منتجاتها. وتنتمي كل الأقسام المقيمة هنا لمجموعة الوداعين من الدواسر وهم من آل إليهم الإقليم بعد هزيمتهم لبني عمومتهم: قسم آل حسن الذين كانوا يعيشون هنا في الماضي السحيق. بيد أن الروايات المتداولة لا توضح شيئاً عن الوقت الذي حدث فيه هذا، أو عن الطريقة التي أصبح بها قسم آل حسن سادة هذه البقاع في المقام الأول، أو من كان يحتلها قبلهم. كلُّ ما يعرف الآن أن الواحة كانت في الأصل تحتلُّ موقعاً يبعد حوالي ميل أسفل الوادي مقارنة بموقعها الحالي في الأطوى^(٢)، وهي بقعة مساحتها حوالي ٣٠٠ فدان من أراضي الجبوب جيّدة الرّي، إضافة لمجموعات متفرقة من النخيل، وما زالت هناك شواهد تدل على من كانوا هنا من قبل؛ إذ توجد مبان سكنية خربة، ومقابر وكومة كبيرة من مبانٍ حجرية مهدامة، توجد كلها على الصخرة التي تعلو سلسلة النعجانية، وكانت فيما مضى قلعة أو قرية صغيرة تعرف باسم قصر ضاري.

(١) الذين لا يملكون جزءاً من بساتين النخيل يتلقون نصيباً من محصول التمر سنوياً عن طريق الهبة، تبعاً

لتقاليد قديمة. (المؤلف).

(٢) في الأطوى ٢٤ بئراً، ثلاث منها ملك للمحمد، والأخريات للحنيش. (المؤلف).

== الجزء الثاني ==

يقترن^(١) مجرى المجمععة بوادي الدواسر إلى الشرق من الأطوى، وبعد هذا يجري الوادي بين الصخور المنخفضة لطويق الجنوبي والنعجانية التي تعوق مجراه حتى يصير ضيقاً. وتعترض المجرى وتحده على الجانبين كثبان الرمال وتلال رملية يغطيها نبات الغضا. وتستمر هكذا لمسافة ميلين، وبعدها تتداخل الصخور التي تجرى على الجانبين بالتدرج في سهل رملي عظيم يسمى الفرشة^(٢). ويمكن تتبع مجرى الوادي الذي يجري عبر هذا السهل في اتجاه شرق الجنوب الشرقي، ويمكن تتبعه بملاحظة الخط الرمادي المائل للخفرة لشجيرات الغضا، في طريقه للمقبرة التي تنتظره في رمال الصحراء الكبرى التي تبعد مسيرة يومين بحسب تقديرات أهالي المنطقة.

جلست صباح أحد الأيام على كومة حجارة فوق آخر نتوءات سلسلة النعجانية أنظر لتلك القفار المهجورة ولذلك الشريط الأخضر الضيق الذي كان في يوم ما نهراً عظيماً، وسألت نفسي إن كانت هناك وسيلة تجعلني أعبر هذا الفضاء الفسيح الذي يقف بيني وبين بحار الرمال.

لقد صحّ مني العزم على الإقدام على هذه المغامرة، ولكن لم تكن هناك ذريعة كافية أقنع بها رفاقي خاصة أنّ الشائعات كانت تتحدث عن عصابات النهب من البدو المتوحشين، مما جعل رفاقي يقررون الامتناع عن الدخول في هذه المغامرة

(١) موقع اقتران المجرىين يسمى المقرش. (المؤلف).

(٢) يقال: إنه يوجد بين الفرشة وبين رمال الربع الخالي سهل حجري صلب عرضه عشرون ميلاً، ويسمى الهدبة. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

العقيمة . وقبل أيام قليلة كانت هناك عصابة قوامها ستة رجال أغاروا على المقرن وحمام وأصابوا بعض النجاح ثم استكشفوا السُّليل على أمل أن يجدوا أهلها نائمين . لكنهم فكروا بعقل وأسرعوا عائدين من حيث أتوا عندما رأوا مجموعة صغيرة من أهل المنطقة وتبادلوا معهم إطلاق النار دون أن يُصاب أحدٌ بأذى . وتصادف أن تلك المجموعة الصغيرة كانوا في الجوار يبحثون عن جمل ضائع . وقال لي حسن العرجاني : «إن حدث وأتيت إلى هذا المكان ثانيةً اسأل عني ، اسمي حسن بن غانم وسيدُكَّ أمير السليل عن مكاني ، وسأذهب بك إلى حيث نصطاد المها معاً» .

رجعت حزيناَ إلى المخيم وأنا أعزِّي النفس بشعوري بأنني على الأقل قد حللت معضلة وادي الدواسر إحدى معضلات جغرافيا الجزيرة العربية . وتقول تلك المطبوعة التي أشرنا لها من قبل : «من المؤكد أنَّ تصريف مياه وادي الدواسر يجري من الجنوب الغربي للشمال الشرقي ، وأن الوادي يضيع في نهاية الأمر في الرمال» . ضياع الوادي في الرمال حقيقة واقعة ، ولكن مجراه هناك من الشمال الغربي للجنوب الشرقي وهي حقيقة تُسلَّم بانحباس النصف الجنوبي لشبه الجزيرة من ناحية الجنوب الشرقي ، وهذا يمكننا أن نتخيَّل الوادي في الوقت الذي كان يحمل فيه نهراً يجري نحو البحر عازلاً نتوء جبل عمان الداخل في الماء عن بقية الجزيرة العربية .

أقمنا في السليل أياماً ثلاثة تجلَّت خلالها الخلافات التي تسود بين سكانها من خلال استقبالات جماعاتها المختلفة لنا . وكانت الغريزة هي التي أوحى لقادة ركبنا

ألاً يسعوا لضيافة أيٍّ من فئاتها المتناحرة، بل اختاروا موقعاً محايداً لم يكن مجاوراً لأيٍّ من قراها الرئيسة، فنصبنا خيامنا في الفضاء خارج الحافة الشرقية لحزام النخيل في جوار قرية آل سويلم. وما كدنا نفعل حتى تسلمنا رسالة من عبدالله بن نادر زعيم الحنيش الذي كان كرمه محتد ويده المبسوطة المعطاة قد شهد بها إبراهيم ورشيد اللذان يحملان عنها ذكريات أثيرة على أنفسهم منذ زيارتهما الأخيرة للمكان. وكان عبدالله يدعونا لتناول طعام العشاء معه ويتوسّل إلينا أن ننقل مخيمنا لمنطقة تقع في دائرة حمايته المباشرة.

واعتذرنا عن قبول اقتراحه الأخير، ولكنّا قبلنا بسرور دعوته للعشاء، فذهبنا إليه بعد مغيب الشمس في اليوم الأوّل لإقامتنا. وكنت قد قضيت ساعةً أو اثنتين قبل أن نستجيب لدعوته متجولاً - في رفقة مترك وناصر وطويرش - في المنطقة وفي المنبسطات الرملية بين الجمعة والوادي.

وفي طريق العودة ذهبنا مباشرة إلى قرية دحلة لنقف قبالة باب مسكن الأمير، حيث كانت بقية المجموعة قد سبقتنا إليه. حيّانا عبدالله بحرارة شديدة، ولما يمض وقت طويل حتى كنا جلوساً على شرائط من حصير في بهو فسيح في الدار نتجاذب أطراف الحديث مع مضيفنا، وكان في ضيافته أيضاً عدد قليل من أهل القرية، نحتسى الشاي وهو نادر عزيز في الجنوب، ونحتسي القهوة ويعطرننا من حين لآخر عبق البخور.

وبعد قليل جاؤوا بالحصائر الكبيرة وبقصعتين عظيمتين تكوم فيهما الأرز ولحم الضأن. وقامت الجماعة بالتهام الطعام بصورة أَرْضَتْ صاحب الدار، وبعد ذلك مباشرةً استأذناً منصرفين لنترك له ولأهل داره الاستعداد لصلاة العشاء.

وكان وجود حزمة أو اثنتين من الأقمشة المستوردة من الهند عن طريق البحرين والأحساء تدلّ على النشاط التجاري لمضيفنا، وهو شيخ مسنّ يبلغ نحواً من ستين عاماً، وذو ذكاء وقاد. لم يخف الشيخ زهوه بالوضع الذي تحتله السليل كموقع تجاري لتبادل البضائع، إذ تلتقي هنا -كما أبان لنا- شحنات البن اليمني المنقول براً مع أقمشة الهند والسكر التي تستورد من الاتجاه المعاكس ليستفيد هو وزملاؤه من الوسطاء الذين ينالون أرباحاً من هذه التبادلات التجارية. لقد خطر بذهني التناقض الذي يتجلّى في أنّ أسواق الهند تمدّ الحاميات التركية في اليمن وعسير عبر هذا الطريق ببضائع تمنع وصول مثلها إليهم الحراسة التي نفرضها على شواطئ البحر الأحمر. وهكذا تصلهم البضائع عن طريق ملتوية. بيد أنني امتنعت عن أن أذكر هذا الأمر لئلا أجرح مشاعر عبدالله، وعزيت النفس آملاً أن يكون هذا الرجل ينتزع أقصى ما يستطيع من سعر لبضائع لا تعني سوى القليل للأعداء المنفيين طوال هذا الوقت في جبال شبه الجزيرة العربية.

ويُقال إن نجران -وهي نهاية الطريق التجاري الطويل- تبعد مسافة تستغرق القوافل سبعة أيام لقطعها عبر صحراء قليلة الماء، وتقع بالتقريب إلى الجنوب من هذه النقطة، وتبعد المسافة نفسها في اتجاه الجنوب الشرقي من واحة الوادي، على طريق به عدد أكبر من الآبار. ولكنهم يفضلون طريق السليل وهو طريق مباشر للقوافل المتجهة شمالاً، ويفضلونه على طريق المرتفعات البديل الذي ينقل عبره الأرز من أسواق مكة إلى الجنوب.

ولقد لاحظت أنّ التعاملات التجارية في المنطقة تتمّ في المنازل الخاصة وليس في المتاجر التي لا يوجد منها سوى أربعة كلها في أحد أطراف قرية المحمد.

أتى القادمون من الجنوب بأخبار عن وقعة حدثت بين تابعي الإدريسي والإمام يحيى، وراح ضحيتها ٤٠٠ رجل من الطرفين بما في ذلك أربعون من مقاتلي نجران، وأحد شيوخ تابعي الإدريسي. وتعرض الإمام للهزيمة وفقد إحدى مدافعه. ولكن تفاصيل المعركة كانت مبهمة لبعد المسافة وللجهل السائد في المنطقة، وعندما تابعت أسئلتي وتحريّاتي أخبروني أنه قد شارك ضباط بريطانيون في الجانبين. ويمكننا أن نعلم مدى الجهل الذي يُغلّف هذه الأنحاء فيما يختص بشؤون العالم من حقيقة أنّ عبدالله^(١) لم يكن يعلم بوجود أتراك في اليمن أو عسير^(٢)، بل كان يتخيّل أن أقرب حامية تركية كانت تلك الموجودة في المدينة. ووردت أيضاً تقارير حديثة عن قتال نشب بين الأتراك وقوات الشريف في الليث الواقعة على ساحل البحر الأحمر، وعن وصول قوات الشريف بقيادته شخصياً إلى المويه بالقرب من عُشيرة للتوصل إلى حلّ بشأن مشكلة الخُرمة. وتجرّأت بإبداء شكوكي حول صِحّة الموضوع الأخير، وأثارت شكوكي هذه ضجّة عظيمة رغم أنهم أقرّوا بعد مزيد من النقاش أنه قد يكون لشكوكي ما يبررها.

أرسل أهالي نجران وفداً لابن سعود يدعونه ليقدم عليهم ويقودهم ضد الأعداء. وتحدث عبدالله -الذي لم يكن يجاربه أحد في إعجابه وولائه للملك السعودي- بحماس عن النزعة المتنامية بين رجال القبائل في الجنوب لاعتبار ابن سعود قائدهم الشرعي، ولتبنيّ المعتقدات السلفية. كانت السليل نفسها حتى وقت قريب موقفاً حقيقياً للاضطرابات والمنازعات الأهلية، ولكن ساد السلام بين الجهات المتحاربة بعد حملة الرياض الأخيرة، ولم تتجدّد الاضطرابات من بعد في الواحة.

(١) من ناحية أخرى سألني أسئلة ذكية عن قضايا تهريب الأسلحة بمسقط ونشاطات القوات الهندية في الحرب. (المؤلف).

(٢) يبدو أن استنتاج المؤلف هنا غير دقيق ويبدو أن هناك سوء فهم من قبله. (المراجعون).

انتقل شرف ومسؤولية الاهتمام بضيوف الواحة في اليوم التالي لقرية المحمد وفقاً للعادة، ولكن ابن ربيعة أمير صباحا - وهو سياسي ماهر - لم يكن ليرضي بأن يأتي ثانياً لغريمه الرئيس، أو أن يفقد فرصة النيل منه، فصرح بأنَّ عبدالله قد تنكر لعقيدته بأن استضاف كافراً، وأنه بفعله هذا قد انتهك قدسية الواحة، وأنه - أي ابن ربيعة - رغماً عن أوامر ابن سعود لن يرتكب هذا الجرم. ولم يكن يستطيع أن يتخذ موقف المعارضة الإيجابية، لذا اكتفى بالمقاومة السلبية. وبزغ فجر اليوم الثاني مشحوناً باحتمالات لا حدَّ لها. ولم أكن أنا أعلم عن الأمر شيئاً، كما لم أكن أدري أثناء النهار بأن شيئاً غير طبيعي يجري في المنطقة. وفي المساء عدت لخيمتي بعد أن تجولت في أنحاء المنطقة وجلست لأكتب مذكراتي ولأقرأ حتى يحين وقت العشاء. وفجأة تنبعت لأصوات غاضبة عن قرب تبعثها صيحات لرفاقي تنذر بشؤم: «سلاحكم! سلاحكم!» وأمسكت ببندقيتي وحزام الذخيرة وخرجت من خيمتي لأستطلع الخبر. فكان بعض رفاقي قد خرجوا من المعسكر متوجهين نحو الخلاء الواقع بيننا وبين صباحا، حيث خرج عدد من الرجال المتحمسين لملاقاتهم، وكان بقية رفاقي يحشون أسلحتهم بالذخائر وقد اتخذوا مواقعهم بطول متراس طيني منخفض يجاور مخيمنا.

كان واضحاً أنَّ مشادة حامية كانت تجري في وسط الساحة وبدا وكأنه لا مفرّ من النزال. ولم أكن أدري حقيقة الأمر ولكنني اتخذت موقعي بين رفاقي المدافعين عن المخيم انتظاراً لصوت الطلق الناري الأول الذي سيكون إشارة لعراك عام. لم يُطلق ذلك العيار الناري الأول وافترق الجمعان متباعدين في صمت غاضب بعد نحو ساعة من المبارزة الكلامية التي تدخل لفضّها عبدالله بن نادر للحفاظ على السلام مع تهديد صريح لصباحا بمهاجمتها إن لم يمتنع سكانها من التحرش بنا.

عاد إبراهيم الآن مع مقاتليه للمخيم وبعدها علمت شيئاً عن أصل القضية ومسارها من النقاش الذي دار حولها أثناء تناول العشاء، ومن اختلاف وجهات النظر الذي اتخذ طابع النقد العنيف للطريقة التي عالج بها إبراهيم القضية الشائكة. كانت المشكلة قد بدأت في الصباح - كما قالوا لي - عندما لم يصل إلى مخيمنا الوقود والعلف الذي كنا نفترض - وفقاً للتقاليد - أنها ستأتينا من صباحاً. وأثار التحديّ المضمّن في هذا الامتناع إبراهيم الذي تصرف تصرفاً غير لائق بأن أرسل رسولاً لابن ربيعة مطالباً - ليس فقط بالوقود والعلف - ولكن ببعض الحبوب أيضاً، وذلك باسم ابن سعود. وقد قوبل الرسول بتعليقات ساخرة حول الكفار فعاد خائب الرجاء. عندها أرسل إبراهيم اثنين من العبيد المسلحين مطالباً الأمير بالمثول الفوري أمامه ليبرر مسلكه.

وعندها جرّد العبدان من سلاحهما وأعيدا مع رسالة مهينة. حينها أرسل إبراهيم ابن جلهم في مجموعة صغيرة طالباً إعادة الأسلحة واعتذاراً عما حدث. وكانت المشادة التي أشرنا إليها قد حدثت أثناء مخاطبة ابن جلهم لهم. ولقد اتفقت تماماً مع الحكم العام الذي رأى أن إبراهيم لم يكن حكيماً في تناوله للقضية، وأنّ تصعيده لها لم يكن له ما يبرره.

ولكنه أثناء النقاش سدر في غيّه ونهض فجأة من مكانه حول مائدة الطعام وهو يعبر عن استيائه للانتقادات التي وجهت له، وصرّح أنّه سيصرّ على اعتذار ابن ربيعة له. أثار طامي - الذي كان بعيداً عند حدوث المشادة، إذ خرج يسعى بمساعدة طويرش بحثاً عن زوجة من بين نساء الحنيش - بعض المرح بين الرفاق عندما أخبرنا أنّه سأل عن مصدر الإزعاج فأجابته عجوز شمطاء أن إبراهيم قد قتل ابن ربيعة، وأنّه نفسه تعرّض للقتل فيما نشب بعد ذلك من عراك. وأتت وفود

من دحلة والقرى الأخرى لمخيّمنا بعد تناولنا لوجبة العشاء وهم يدعوننا لتناول القهوة، كما أحضروا بعض هدايا من خرافٍ وأشياء أخرى. وأبدوا أسفهم لما حدث. ولكن لم تكن هناك مؤشرات للتوبة من ناحية القسم الذي تسبب في المشاكل قبل اليوم التالي، حيث دُعينا لمنزل عبدالله لتناول القهوة وبينما كنا هناك أتى مبعوثان إنابةً عن ابن ربيعة لإبلاغنا بأسفه لما حدث مستجدياً العفو عنه. ولقد منحه إبراهيم عفوهُ بعد توسّط من مضيفنا. وفي وقت لاحق بعث ابن ربيعة بمبلغ أربعين دولاراً لتوزّع على العبيد الذين أساء إليهم. وعرض أيضاً أن يمدّنا بما نحتاج إليه. ولكن المنحة المالية وعرضه الأخير رفضا مع الشكر، وأسدل الستار على آخر فصل من فصول المسرحية الفكاهية التي كان يمكن أن تقود لنتائج غير سارة. ولعلّ هذه الأحداث كانت بطريقة ما في صالحنا. إذ أنّ الذريعة الوحيدة التي كان يمكن أن تُثار رفضاً لوجودنا قد أُثيرت فعلاً أمام الملأ، ولكننا كسبنا الجولة تقريباً بالنقاط.

باستثناء عداوة قسم المحمد لم يكن هناك ما نعيه على معاملة رجال المنطقة لنا. ولقد أبدوا قدراً كبيراً من حب الاستطلاع لمعرفة طبيعة زيارتنا، وكانوا يردّون تحيتي كلّما التقيت بهم في بساتين النخيل أو في أي مكان آخر، وفي بعض الأحيان كانوا يحدثونني بترحاب وود. وبطبيعة الحال التقينا أكثر بعبد الله وابنه ماجد، وهو رجل شبيه بأبيه. ولقد تناولنا معهم وجبة الإفطار في اليوم الأول، كما أسلفت، وتناولنا القهوة بدارهم في اليوم التالي للمشكلة، وكنا ضيوفهم ومعنا بعض الآخرين على وجبة المساء في الليلة الأخيرة التي قضيناها بين ظهرائهم. وكان الشخص الوحيد الذي استضافنا بخلاف هذا الأمير هو أحد أقرباء طويرش، ويدعى إبراهيم، كان قد التقى بنا في شوارع دحلة وقدم إلينا

الدعوه بترحاب كبير لنزوره في داره حيث تجمع عدد قليل من أصدقائه للترحيب بنا. وكان أحد أفراد تلك المجموعة شيخ عاجز يُشاع أنه قد تخطى مئة عام من العمر. وقُدِّم إليّ في هذه المناسبة ولأول مرة، أحد مشروبات الجنوب الأثيرة وهو شراب بديل للشاي يصنع من قشر حبوب البن ويسمونه (قشِر)، ويوضع في الماء بدلاً عن أوراق الشاي. ولا بدّ من التعود على طعم هذا المشروب، ولكنني وجدته ممتعاً -إن شرب بكميات قليلة- رغم أنه مستخلصٌ ضعيف الطعم.

في صباح أحد الأيام قمنا بزيارة قصيرة مرتقن أعلى مجرى المجمععة، ومتخطين روابي مزرر الخمس الصغيرة الواقعة على الجانب الأيمن للمجرى حتى بلغنا بقايا مستوطنة صغيرة مهجورة تدعى بهجه وبها قصر خربٌ وحيد وبئر بها قليل من ماء على عمق سبع قامات. وكان هذا كل ما بقى من المستوطنة الواقعة وسط أجمة من الأثل. ولكن المنطقة كانت في السابق منطقة زراعية، ومازال الرعاة يلجؤون إليها أحياناً. وتوجد آثارٌ شبيهة بهذه تعود لأزمان قديمة، في مهد شعيب سديرة، وهو رافد للمجمععة من الناحية الغربية، وتسمى هذه الخرائب نخل الفوح رغم أنه لا توجد بها نخيل.

وفيما يختص بالحبوب والتمور^(١) فإنّ واحة السُّلَيْل مكتفية ذاتياً. وكان مرأى بساتين النخيل الكثيفة^(٢) بالمستوطنة، مع قناء التمر المثقلة الخضراء قد فتنني، ودار بخلدي أنها لا تقلّ جودة عن خير بساتين النخيل في السيح أو الرياض. وكما هو الحال في السيح فإنهم لا يزيلون فروع السعف الذابلة «كرب». أما في بلاد ما بين

(١) أكثر العينات شيوعاً هي سري ومقفزي. (المؤلف).

(٢) معظم البساتين لها أسماء خاصة بها مثل بطيحا وصفية وغيرهما. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

الرافدين وفي أعلى الجزيرة العربية فإنهم يستخدمون هذه الفروع بصفتها وقود، ولكنهم لا يحتاجونها لهذا الغرض في الجنوب، ونتيجة لهذا يصبح جذع النخيل أكثر ضخامة ولها مظهر سطح مجعد خلافاً للمظهر الأملس لسيقان النخيل في أجزاء أخرى من البلاد حيث الطلب على حطب الوقود أكثر إلحاحاً. إنهم يقولون إن الإبقاء على «الكرب» فيه نفع للنخيل. ويُزرع القطن متفرقاً هنا، ولقد رأيت حقلاً صغيراً مزروعاً بكامله قطناً، وهي طريقة غير متبعة لزراعة القطن في الجزيرة العربية وإن جاز لي أن أحكم عليها من حالة هذه الرقعة فإنها ليست عظيمة النجاح.

لم أشاهد أو أسمع في هذه الأنحاء عن الرمان أو العنبر، بينما كانت عينات من اللوبيا تنمو ملتفة حول جذوع النخل. وكانت هناك وفرة من الباذنجان والخضراوات، ورأيت كرمات الأعناب وأشجار الليمون كثيراً. كما مررت بقليل من أشجار التين^(١). ويعتمد نظام الري هنا جزئياً على الفيضان من السيول التي يحملها شعيب المجمع، كما تعتمد جزئياً على آبارٍ يختلف عمق الماء بها من ثلاث إلى سبع قامات ووفقاً لموقعها وللموسم، إذ يرتفع منسوب الماء في وقت السيل^(٢) بمقدار قمتين أو نحوها. وتُستخدم الإبل دون غيرها لسحب الماء، وهذا دليل على ارتفاع المستوى المعيشي.

كانت زيارتنا أثناء الصيف الذي يستمر وفقاً للتقديرات المحلية لأربعين يوماً تُحسب منذ ظهور الثريا، وهو موسم يعد الأسوأ خلال العام للإبل حيث تتأثر

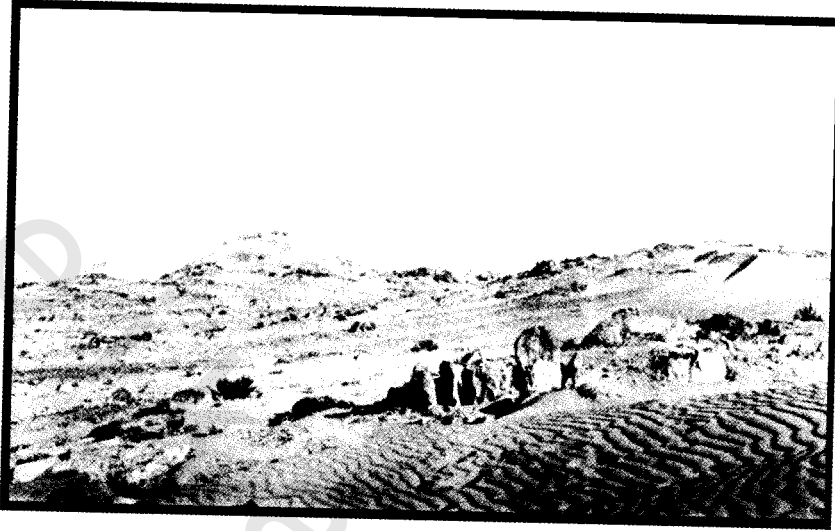
(١) يكثر الأثل، ولقد رأيت بعض نباتات خروج الزيت متناثرة (راجع حاشية ص ٢٧٢). (المؤلف).

(٢) جرت السيول بمجرى المجمع ثلاث مرات خلال الشتاء والربيع الماضيين. (المؤلف).

== الجزء الثاني ==

سلباً مراكز الشحم بها والأقدام من أثر الحرارة. بيد أنني كنت مندهشاً وسعيداً بالطقس الذي كان معتدلاً أثناء الليل، إذ كانت أقل درجة سجلتها تحت ٧٠ فهرنهايت، لكنها كانت ترتفع أثناء النهار لتبلغ في أقصاها ١٠٩-١١٠ فهرنهايت.

يتبع إقليم السليل - الذي يضم حُمَام في الشمال ومجموعة واحات تمرة في الغرب - إدارياً لإقليم الوادي وهو تحت إمرة حاكمها الذي يقيم ممثلاً لابن سعود في اللدام عاصمة الإقليم. وفي حدود الإقليم يدير شؤون كل قرية زعيمها القبلي إدارة مستقلة. ويقوم كل زعيم بجمع المستحقات العينية على قبيلته أو قسمه، ويرسل مايفيض عن المنصرفات المحلية لخزانة بيت المال.



صورة أطلال فرزان



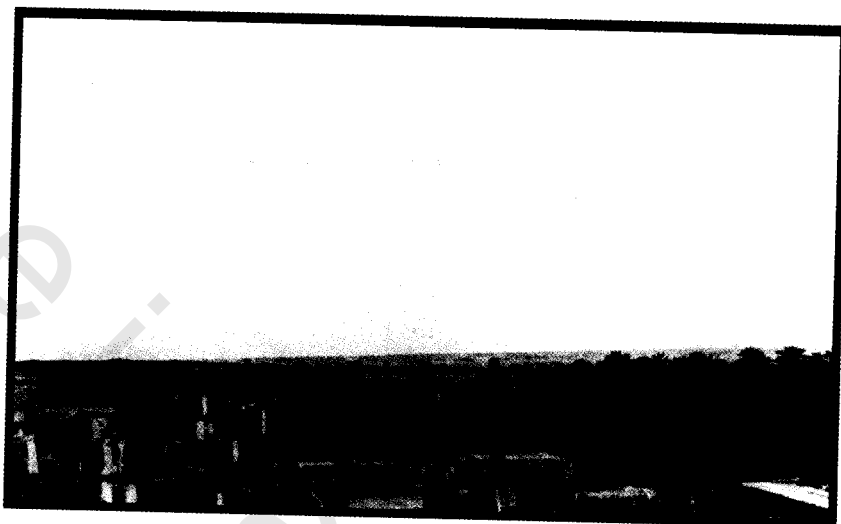
صورة أطلال اليمامة، وموجات الرمال العظيمة تصل إلى حافة النخيل



صورة ليلي، عاصمة الأفلاج



مستودع مياه المقرن، وإبل الدواسر ترد الماء



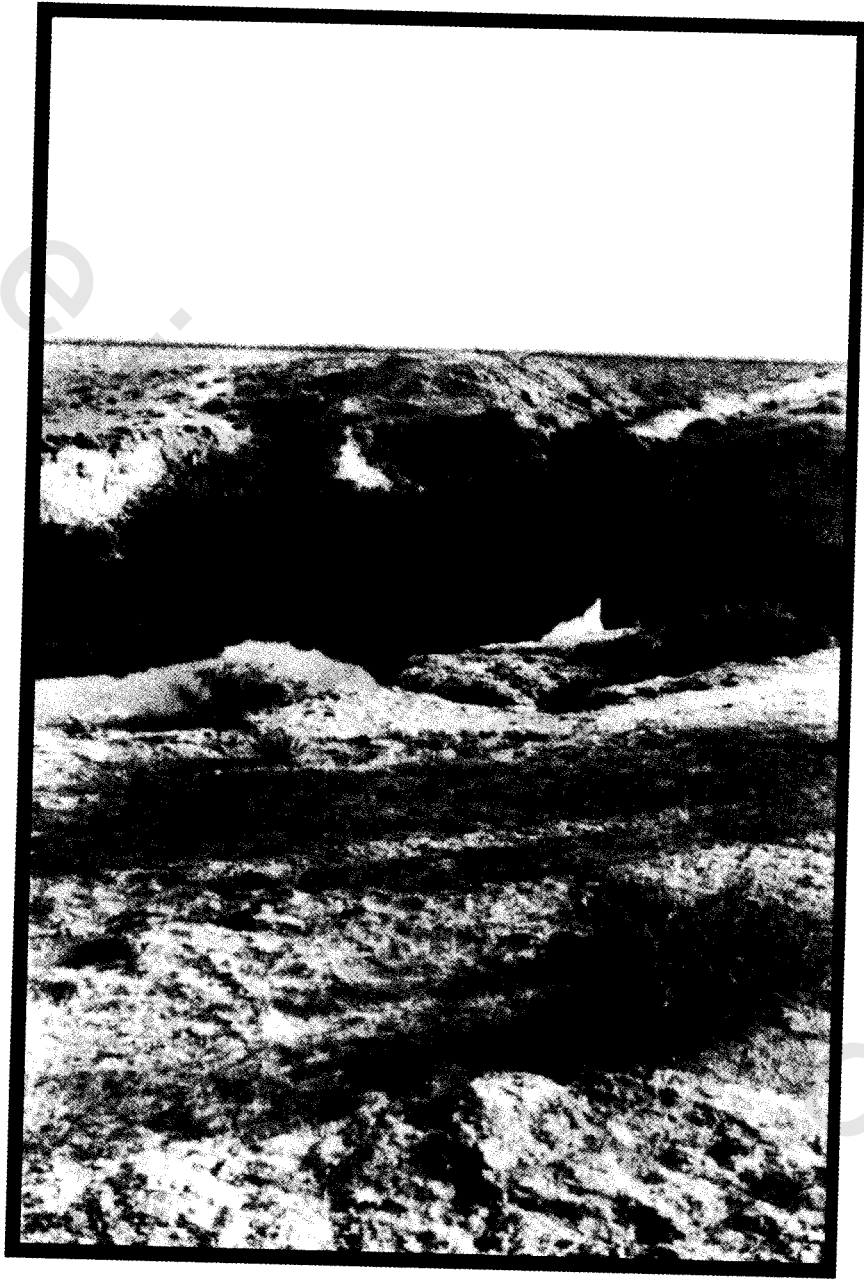
صورة قرية الحنيش الصغيرة في منطقة السليل



صورة قرية تمرة في وادي الدواسر



بحيرة أم الجبل العظيمة، الأقلاج



صورة عين سمحة إحدى برك الخرج العميقة

obeikandi.com

٣- المرحلة الأخيرة

في يوم ٢٦ مايو (أيار) تجمّع عبدالله وآخرون لوداعنا، وشرعنا في المسير من السليل في آخر مرحلة من مراحل رحلتنا. وعبرنا المجمععة وشريطاً عريضاً من الكثبان التي يغطيها شجيرات شنان وآسل^(١) وشجيرات أخرى من فصيلة الحمض- حتى بلغنا حافة العفجة وهو الاسم الذي يطلق محلياً على الجزء الواقع بين الجبال من مجرى وادي الدواسر، ويطلق عليه أهل السليل أحياناً اسم الباطن، ولكن لا يسمّونه على الإطلاق الوادي أو وادي الدواسر، كما أنّ وديان الدواسر خطأ في التسمية إذ أنّ هناك وادياً واحداً فقط. أمّا اسم الوادي والذي يُسمّونه في أحيان قليلة وادي الدواسر فيبدو أنّه يُطلق على الواحة فقط ولا يُستخدم لأيّ جزء من مجرى الوادي الذي لا يعرفون امتداداته إلا بصورة مبهمة.

يتكوّن مهد العفجة في معظمه- وخاصةً إلى ناحية الغرب بجوار الفتحة- من شريط عريض من تربة طفلية تتخللها الأملاح وتعرضها أحياناً رقاّع من تربة رملية وتكسوها الشجيرات المذكورة آنفاً. ومن بين هذه الشجيرات يستمتع الشنان بقيمة اقتصادية عالية إذ أنّ رماده بعد حرقه يُستخدم بصفته صابوناً لغسل الملابس، ويعرف عنه أنّه يُعطي الكتان الأبيض لمعاناً ومظهراً برّاقاً. أمّا الرقاّع المألحة التي كانت تظهر هنا وهناك في صورة تبدو كالجليد الناصع البياض فلم تكن صالحة كمعبرٍ للإبل خاصة بعد هطول الأمطار. ويعبر الوادي الطريق العام الواقع إلى الغرب، ويجري محاذياً لجانبه الأيمن فوق منحدر طويق ذي الأرض الصلبة الذي تجري عبره نحو أسفل المنحدر مجاري سيول صغيرة^(٢) حتى حافة الوادي.

(١) من فصيلة سواد نفسها. (المؤلف).

(٢) مثل وادي سمير، شعيب لبط. (المؤلف).

توقفنا قليلاً للإفطار في أحد هذه المجاري، وهو أكبر قليلاً من الأخرى، واسمه شعيب الدهنا توقفنا بالقرب من نضح ماء معزول «مشاش» به كميات قليلة من ماء صافٍ عذب على عمق قدمين أو ثلاثة ويمكن الحصول عليها فقط أثناء أو بعد وقت قصير من انقضاء موسم السيول وذلك بإزالة الرمال من بطن المجرى. ووجدت كثيراً من الحجارة على تلٍّ يواجه الشعيب، وهو ركامٌ من حجارة دائرية كثيرة العدد لدرجة تثير شكاً في أنها نصب تذكاري عادي، ولكنها موجودة في مكان بعيد عن أيّ موقع صالح للسكن، لذا لا يمكن تصنيفها مع خرائب الأفلاج. بيد أنها كانت تشابه لحدٍّ كبير في بعض النواحي النُصب التي ترى بجانب الطريق الذي يعبر نتوء البياض إذ كانت كومة الركام مكوّنة من قطع صخرية مسطحة شبيهة بالأردواز، وكانت لها في حالات كثيرة ممرات ضيقة تبطنها الحجارة في جانب واحد. ولعلها كانت مقبرة في موقع شهد حرباً قبلية، وليس من الضرورة أنها تعود لأزمان سحيقة. وإن كان الأمر كذلك فإن التفسير نفسه يمكن أن ينطبق على أكرام حجارة البياض. وأشاروا لي نحو مكان لا يبعد كثيراً عن هذا الموقع لبعض الحجارة البيضاء تبدو وكأنها تسمُ حدود موقع دارت فيه معركة في الماضي بين أهل السُّلَّيل وأهل تمرة. ولا بد أنّ الحجارة قد نصبها المنتصرون؛ أهل تمرة فيما اعتقد للتدليل على نجاحهم، إذ أنّ اللون الأبيض هو شارة الانتصار. إنّ الذين يظهرون تميّزاً في المعركة يُكافؤون بتقريظهم أمام الملائ: بقولهم «بيّض الله وجهه»^(١).

وعندما يقترب الطريق من فتحة طويق تتراجع المرتفعات الجنوبية نحو خليج عميق يجري نحوه شعيب العمور عبر واحة تمرة. وعلى الجانب الشرقي من فتحة هذا الخليج وعلى المنحدر اللطيف للجبل تمتدُّ واحة خشيقان في غير ما اتّساق، وبها مستوطنة الضويّان التي يسكنها حوالي ١٠٠ نسمة يعيشون في قصور متناثرة،

(١) راجع الجزء الأول ص ٢٠٧ . (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

بالإضافة لقرية صغيرة تقف بإزاء أكبر بستان من مجموعة بساتين نخيل صغيرة. والتربة هنا كثيرة الملوحة، ومياه البئر الوفيرة التي توجد على عمق ثلاث أو أربع قامات جدٌ مالحة. ومعظم بساتين النخيل هنا حديثة، وقد يعود تاريخها لعشر أو خمس عشرة سنة. وأكبر هذه البساتين هي التي تبدو أكثر عمراً، حيث إن سكان الضويّان نزحوا منذ عهد قريب إلى هذا الموقع من السليل.

ويوجد في الطريق القصي للواحة برجا حراسة صغيران، لا بدّ أنهما أقيما تحسباً لهجوم مفاجئ. وبعد وصولنا لذلك الطرف القصي للواحة استدرنا نحو الخليج مرتقين مجرى العمور متخطّين قرية شارة الطرفية التابعة لمستوطنة قمر، لنجد أنفسنا بعد ذلك مباشرة في جوار قرية الفارس وهي أكبر من سابقتها. وقررنا أن نقضي بهذه القرية بقية يومنا ذلك واليوم الذي يليه لنعطي فرصة لرشيد وعايض ليسبقونا لإخطار أهل الوادي بمقدمنا ثمّ يعودا ليلحقا بنا. كان عايض هذا أحد رجالنا وهو عرجاني، وكنا نأمل أن يعودا وفي حوزتهما بعض التبغ إذ أنا اشترطت على رشيد أن يأتي به بطريقة أو بأخرى. إذا لم نجد شيئاً منه في السليل.

واستطعنا أن نشاهد من فوق رابية في الجوار يعلوها متراس منخفض، أو قلعة لا سقف لها، تحفها فتحات الرمي، منظرًا ممتازاً شاملاً للواحة وللإقليم الذي يحيط بها. تحيط بخليج قمر قرون عالية تعلو المرتفعات التي تجري مستديرة لتصل الأرض الرأسية الشاهقة خشم العمور التي تطلّ على فتحة طويق من الناحية الجنوبية كما يفعل خشم سواد من أقصى الاتجاه المعاكس. وكان بطن الوادي في جوار الفتحة وعلى جانبيها يكون سطحاً باهر البياض انتشرت فيه بعشوائية أشجار نخيل كبكابية. تمكنا أن نرى عبر الفتحة في اتجاه الغرب ببداء فسيحة من الرمال غير النهائية التي تمتدّ دون انقطاع لمسافات بعيدة من جرف طويق الشاهق الواقف كالحائط ممتداً نحو الشمال مع عدد لا يُحصى من الأراضي الرأسية المصطفّة على الجانب الشرقي لطويق. ولم تلح لنا مؤشرات تنبئ عن وجود مستوطنات بالوادي نفسه.

لم نكن ندري إن كانت أنباء المشكلة التي واجهتنا في السليل قد سبقتنا إلى
قمرة أم لا . ولكننا تلقينا استقبالا شعبياً عند بلوغنا إيّاها حيث تجمع لاستقبالنا
أمير قمره وجزء كبير من رجالها في الموقع الذي اختير لمخيمننا . كان الموقع جميلاً
تظللّه أشجار الأثل في المهدي الرملي للشعيب . وأوقدوا نارهم على عجل لإعداد
القهوة ، وجلسنا جميعاً في دائرة نتجاذب أطراف الحديث متناولين مواضيع متفرقة
كعادة العرب . وكما كان الحال في السليل فإن الموضوع الرئيس كان أسعار البن و
«القشر» . كان سعر البن^(١) في السليل في ذلك الوقت دولاراً ونصف «لصاع»
وقدره «وزنتان» ، بينما كان سعر القشر دولاراً واحداً للصاعين أو الثلاثة (كان في
حقيقة الأمر صاعان ونصف بدولار) . وكنت قد لاحظت أثناء الطريق قطعاً
صغيراً من الخراف ذات الصوف الأبيض^(٢) ، والتي أخبروني أنّه قد أتى بها منذ
عهد قريب من وادي تثليث في مرتفعات عسير لعرضها للبيع . إنّ خراف الدواسر
- مثلها في ذلك مثل خراف نجد - سوداء اللون في الغالب . اللحم والأرز سلع
ترفيه نادرة في هذه الأنحاء للحدّ الذي لم نتمكن فيه من ابتياع خراف أو ماعز في
السليل نفسها . بيد أنّ هذا القصور تمّ علاجه عندما التقينا بصاحب القطيع الذي
ذكرناه والذي جاء إلينا ومعه ثمانية خراف اشتريناها جميعاً بعد أن علمنا أنّ هناك
احتمالاً ألا نجد لحم الضأن في الطريق أو في الوادي نفسه .

(١) كان السعر في الوادي أعلى ، وهو «وزنة» واحدة للدولار الواحد . إنّ وحدة الوزن في وسط الجزيرة
العربية مثل وحدة العملة هي الدولار أو الريال . وتختلف «الوزنة» من إقليم لآخر ، فهي الوزن المعادل
لزنة ٥٠ ريالاً في الرياض و ٥١ أو ٥٢ ريالاً في القصيم ، و ٥٥ ريالاً في السليل و ٦٠ ريالاً في الوادي .
و«لصاع» الواحد يعادل «وزنتين» في كل مكان . وهكذا إنّ أخذنا في الحسبان الفرق في زنة «الوزنة» ،
نجد أنّه يمكنك شراء بُنّ وزنه ٧٣ ريالاً بقيمة دولار واحد في السليل ، بينما يشتري الدولار الواحد في
الوادي بُنّاً زنة ٦٠ ريالاً . (المؤلف) .

(٢) الصوف الأبيض يسمونه حبس . (المؤلف) .

وواحة تمر هي مستوطنة مزدهرة تحتوي على بساتين نخيل ممتازة. كان محصولها حينذاك يعدُّ بخيرٍ وفير، كما كانت بها بعض أراضي الحبوب وكثير من الأثل الذي كان بعضه قد صار أشجاراً ضخمة. تزرع هنا أيضاً كميات وافرة من القطن، ليس كفواصل بين الحقول أو في داخلها، ولكن في شكل أجمات صغيرة متماسكة. ويعرف عن نبات القطن أنه يبقى منتجاً لخمس سنوات، بعدها يُنزع من الجذور ليستبدل به نبات جديد. ويبدو أنّ البصل هو المحصول السائد بين الخضراوات. أما تعداد السكان في المستوطنة فهو ٥٠٠ نسمة، يقيم منهم حوالي ١٠٠ في قرية شارة، والبقية في قرية الفارس الرئيسة. وأسماء هذه القرى هي أسماء الأقسام الرئيسة لقبيلة العمور وهي مجموعة قبلية ليست من الدواسر رغم أنها ترتبط بها بعلاقات اجتماعية ضاربة الجذور. وهي جزء من أربع مجموعات تُعرف كلها معاً باسم آبات الدواسر ولعلهم سلالة من كانوا يحتلون الوادي قبل الدواسر هؤلاء سأحدث عنهم أكثر عندما أتعرض للدواسر أنفسهم.

تجمّعنا عقب صلاة العصر مباشرة لنقوم بزيارة رسمية للأمير فارس بن فالح، الذي كان منزله في وسط قرية الفارس. كانت قاعة القهوة التي اجتمعنا فيها من مضيفنا وكثير من أهل قريته (كنا حوالي خمسين)، كانت قاعة صغيرة ووضيعة كمثيلاتها في أي مكان آخر في الجزيرة العربية. وكان طولها نحواً من ثمانية عشر قدماً، وعرضها نصف ذلك، ولم تكن بها فتحات باستثناء الباب الذي دلفنا عبره إليها، ونافذة خشبية صغيرة تبلغ مساحتها ثماني عشرة بوصة مربعة. وأوقدت النار في الموقد بأحد أطراف الغرفة، وما لبث الطقس أن صار خانقاً، ولا بدّ أنّ درجة الحرارة في الظل خارج القاعة كانت نحواً من ١٠٨ فهرنهايت، وكانت تعلو فوق ذلك ببضع درجات في الداخل. ولا يمكن للقلم أن يصف مدى الضيق الذي

شعرت به عندما احتشدنا في تلك الغرفة الضيقة، ولحسن طالعي كان مجلسي بين المنفذين الوحيدين، ولكنني لم أكن أبعد عن الموقد سوى ياردة واحدة، وكنا في هذا الجو الخائق نحتسي القهوة الساخنة ومشروب قشر البن. ولم يكن التحادث ممكناً في تلك الظروف، ولكنني عندما دلفت إلى المكان قررت فوراً أن أخضع نفسي لتلك التجربة القاسية، وأن أتحدث معهم لأعلم عن بلادهم.

أخذ مضيفي والآخرين يتبادلون الحديث، وجلست أنا هكذا لمدة خمس وأربعين دقيقة سابقاً في العرق، وأثناء كل هذه الفترة لم يوجّه إليّ أحدٌ - باستثناء إبراهيم - كلمة واحدة، بما في ذلك مضيفي الذي كان يجلس بإزاء الموقد. وعندما يئست من إشراكي في الحديث أخبرتهم بعزمي على الرحيل، ولم يتسبب هذا الاقتراح أيضاً في إدخالني في دائرة النقاش الاستطراذي العابر فنهضت مودّعاً دون أن أبادل تعليقاً واحداً مع أي شخص. وعندما خرجت شعرت ببرودة تسري في أوصالي حتى بلغت العظم رغم حرّ الهجير في فترة ما بعد الظهر. وتقدّمت بخطى حثيثة نحو المرتفعات الوعرة الواقعة خلف القرية، ولم أتوقّف حتى بلغت قمّتها. شعرت الآن بالتحسّن وجلست ومعني جابر ومترك وناصر وعبيد الذين جدّوا على أثري لاهتين ليلحقوا بي. جلسنا نراقب المشهد ونتحادث بينما كانت الشمس تنحدر نحو المغيب، وعندها عدنا أدراجنا عابرين الواحة نحو مخيمنا. لقد أحسّوا هم أيضاً بالضيق في تلك الغرفة مفرطة الحرارة. «لكنهم ما يعرفون»، هكذا قالوا لي ليبرروا من ناحية أفكار القرويين الغريبة فيما يختص بالاستمتاع بوقت ما بعد الظهر، وليجدوا لهم العذر من ناحية أخرى لصمتهم الريفي القح. وتعجبت للضيافة الكثيرة التي تسبقها حسن النية في هذه البلاد الجنوبية، وتساءلت

إن كان هؤلاء القرويون يفضلون الجلوس في مكان كهذا على الجلوس تحت وهج الشمس المباشر. لقد كانت وجهة نظري أن الأخير أفضل بفارق كبير.

خصّصتُ ثلاث جوائز لأوّل ثلاثة رجال يصلون لقمة المرتفعات على الجانب الغربي من الخليج، وذلك حتى أحفّز رفاقي لينضمّوا إليّ أثناء الزيارة القصيرة التي كنت أنوي القيام بها لتلك القمة صباح اليوم التالي. تمّت الموافقة على العرض بحماسة شديدة، ووجدت نفسي في وقت مبكرّ على سطح سلسلة التلال وبصحبتي اثنا عشر متنافساً جميعهم تواقين لبداية السباق. تركتهم في السطح وارتقيت السلسلة الأولى ماشياً بعد أن أوضحت لهم أن الفائزين هم أوّل من يصل أعلى بقعة من المرتفعات. ثم أعطيتهم إشارة البدء في السباق. وتقدمت وأنا أنظر خلفي نحو التسلّق على الجوانب الوعرة للتل. كانت المسافة نحواً من نصف ميل، والارتفاع حوالي ثلاث مئة قدم في منحدرات ثلاثة حادة تفصل بينها مرتفعات متموجة. كان الفائز الأول هو عبيد القحطاني، وجاء ثانياً مع فارق كبير عبيد، وهو تابع «عبد»، وثالثهما ناصر العتيبي، وتساقط الآخرون بفعل الإرهاق الذي لم يتعودوا على مثله، ولكنهم كانوا جميعاً مبتهجين في مرح عندما تجمعنا على القمة لتناول إفطاراً خفيفاً. أقلقنا بالجلبة التي أحدثناها زوجاً من الغزلان ذات اللون البني الغامق، بيد أنهما لم يمكّنا مترك - المتحفّز دوماً لصيد الغزلان - من نفسيهما، فاختفيا في طيّات التلال تتبعهما طلقة نارية انطلقت بعد فوات الأوان. وبعد قليل لاحظنا ثعلباً يتسلل بعيداً عنّا، ولكن مترك الذي لا تفتر همته تعقبه خفية، لكن ما لبث أن غابت طريدته من أمام ناظريه، وتهادى الثعلب أسفل الجرف على مرأى منّا جميعاً باستثناء مطارده، حتى بلغ السهل في الأسفل ليختفى

في زروع كبكاية. كان المشهد من قمة خشم العمور مخيباً للأمل رغم أننا شاهدنا على البعد واحة كمدة من وراء السهل الغربي. وخلافاً لهذا كانت هضبة طويق تحتل المسرح من كل الجهات وكان جبل فردة يحجب عنا الرؤية من ناحية الجنوب الغربي، بينما لاحت على البعد من الناحية الشرقية نخيل تمرة وخثيقان والسليل في حوض العفجة.

خرجت في فترة ما بعد الظهر مع جابر ومترك وقليل من الآخرين هابطين شعيب العمور سائرين عبر بطن الوادي حتى بلغنا سفح أرض سواد الرأسية، ثم قفلنا عائدين. كان السير فوق التربة «السبخة» الهشة أمراً صعباً، وكان علينا أن نشق طريقنا بين أجمات الأثل المرتفعة لخمسة أو ستة أقدام والتي غطت المجرى العريض. تحول الحديث أثناء المسير لموضوع العقيدة الذي جعل رفاقي في حيرة من أمرهم منذ قدومهم لهذه البلاد. إن «الأذان» أو النداء للصلاة في الجنوب يُرفع بعد غروب الشمس مباشرة (لصلاة المغرب)، وقبل شروقها مباشرة (لصلاة الصبح)، ولكن في الشمال يرفع الأذان للصلاة الصبح عند بزوغ أول ضوء للفجر مباشرة، ولصلاة المغرب بعد أن يختفي آخر أثر لضوء الشمس. ويصرُّ الشيخ عبدالله^(١) كبير علماء الرياض على أن تؤخى التوقيت الصحيح للصلاة له أهمية قصوى، ولا بد أن يتقدم على أي اعتبارات أخرى بما في ذلك الضوء نفسه، وهو ما يمكن الاستغناء عنه مثلاً عندما يصبح الحصول على الماء - عند حلول موعد الصلاة - غير ممكن لذا أثارت بدعة الجنوب هذه كثيراً من التعليقات المعارضة والتعابير

(١) الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ المتوفى سنة ١٣٣٩هـ. (المراجعون).

المستاء الصارخة من قبل رفاقي إذ أنهم على اقتناع بأن قضاء الصلاة بعد فوات وقتها لا يُسمح به إلا إن لم يكن تأخيرها ناتجاً عن خطأ للشخص المعني. كما يُعتقد أن الأرض «السبخة» غير طاهرة ولا تجوز الصلاة عليها. تعد هذه الضوابط بين عرب الصحراء البسطاء أموراً غير ذات أهمية، ولكن من ناحية أخرى فإن المصلين السلفيين يتصفون بالابتعاد عن روح الصرامة والانضباط بعد بداية الصلاة، أي إن بدئ في أداء الشعيرة في وقتها الصحيح فليس هناك من غبار على أن يأتي بعض المصلين متأخرين ليلحقوا بالصلاة المستمرة، كما يمكن التغاضي عن تجاوز المصلي للضوابط فيما يختص بالخشوع والمتابعة، كما يُسمح بالتعجل في أداء الصلاة، ويمكن للمصلي أن يقطع صلاته لتهدئة جملة الجامع ثم يعود لمتابعة الصلاة وكأن شيئاً لم يكن دون أن يضطر لإعادة الصلاة من أولها. ولقد أخبرني حسن أن صلاة الجماعة ليست القانون الغالب في نجران إذ يُصلي كل فرد منفرداً.

ولما لم نسمع شيئاً من رشيد حتى صباح اليوم التالي، تابعتنا رحلتنا في اتجاه الغرب على افتراض أن الطريق آمن حتى واحة الوادي، والتفتنا حول قاعدة خشم العمور، ثم تابعتنا السير موازين لحافة نخيل كبكاية الكثيفة التي يمتلكها أهل قمر، والتي تقع في رقعة فسيحة من التربة «السبخة».

لم تكن في كل رقعة النخيل هذه مستوطنات أو آبار، ولم يكن أصحاب النخيل يزورون المكان إلا لصرام التمر وجمعه، وكانت النخيل تستمد متطلباتها من التربة المالحة التي كانت تمتص مياه الأمطار القليلة التي تهطل هناك وتحتفظ بها بالقرب من السطح.

كانت الجروف الخارجية لطويق الجنوبي تتجه نحو الجنوب الغربي ابتداءً من هذه النقطة. وكانت تسم مساره أراضٍ رأسية ناتئة ترتفع ارتفاعاً حاداً من سطح السهل، كما كانت تتناثر أكوامٌ من الأنقاض حول قواعد الأراضي الرأسية.

وكانت تعرية الصخور قد انتجت في بعض المواقع -عند حافة السهل- أهراماً منفصلة أو متصلة من الحجارة الرملية. وظهر الحائط الغربي للمرتفعات الشمالية جلياً وهو يمتد إلى الخلف نحو الشمال على مدّ البصر بطول حافة السهل. أما في ناحية الغرب والشمال فلقد امتدّ سهل لا نهائي ذو تربة رملية طفلية تتخلله رقاع عريضة من الكثبان وبعض البقاع المألحة.

ارتفعت أرضاً فردة الرأسيتان من خلف خشم العمور مباشرة في جزء شديدة الوعورة من الجُرف. وهذا موقع مفضلّ لعمليات قطع الطرق القادمين من الجنوب إذ يتخفون بين الجروف والصخور الشاهقة ثم يهبطون عبر طرق لا يعرفها غيرهم لنهب القوافل المارة عبر الوادي ويهربون نحو الجبال ثانية قبل أن يتلقّى الضحايا النجدة بوقت كبير. يطلقون على هذه الصخور الشاهقة لقباً مناسباً إذ يدعونها المقاتل. وعندما سرنا في أطرافها كان حراسنا يتقدموننا تحسباً للمفاجآت، كما كنّا نراقب القمم والجرف المنحدرة بحذر شديد، ولم نتوقف للإفطار حتى انحرفنا عن هذه المنطقة بمسافة آمنة. حيث نزلنا في شعيب كثيف الشجيرات يُسمّى زول المغر، ثم هبطنا منه نحو مجرى الوادي عن يميننا. ويحصر هؤلاء النهاب نشاطهم في المسافرين الفرادى والقوافل الصغيرة، ولكن كان علينا في صقع غير آمن مثل هذا توخّي الحذر واتخاذ ما يلزم من حيلة. لاح لنا من ذلك الموقع الذي نزلنا به مشهد ممتاز لأراضي جنوب طويق الرأسية التي كانت تمتدّ على مدّ البصر.

سرنا فوق السهل لنجد أنفسنا بعد قليل نشقّ الطريق في قفار من الكثبان التي تغطيها شجيرات الغضا التي طمست بالكامل كل معالم مجرى الوادي. ولم يكن لون الرمال الواقعة بين سلاسل التلال -والتي كانت تعلو طبقات صلبة من تربة قوامها الحجارة الجيرية- ضارباً إلى الحمرة كما هو الحال مع رمال النفود، لكنها كانت بيضاء ثابتة. سرنا هكذا لمسافة عشرة أميال دون أن تتغيّر المعالم حتى بلغنا

المستوطنة البائسة في واحة كمدة، في فضاء تحدّه أشجار أثل طويلة سميكة الجذوع،
لتمنع عن المستوطنة الرمال المتسللة.

وجدنا هنا أخباراً سيئة عقدنا العزم بعدها على عدم مواصلة الرحلة. قابلنا
الأمير فارس بن راقص عند وصولنا ومعه رسول أتى لتوّه على عجل من حاكم
الوادي وهو يروي القصة التالية: ما إن بلغ رشيد وعايض غايتهما حتى انطلقت
الأخبار بأنهما كانا طلائع لمجموعة تضمّ أحد الكفار. فقام على الفور أهالي اللدام،
عاصمة الوادي بالاحتشاد حول قصر الحاكم يعترضون في غضب على السماح لكافر
بأن يبقى بين ظهرانيهم، ويعلنون أنهم سيقاومون دخولنا للمدينة بالقوة، وتباحث
الأمير والقاضي في الأمر وتوصّلا إلى أنّ أوامر ابن سعود أحقّ أن تُتبع. وتعرّض
رشيد وعايض لمظاهرة معادية ورأى الأمير أن يبقيهما في مأمنٍ بقصره لئلا يتعرّضا
للأذى أثناء عودتهما إلينا. لذا بعث بأحد تابعيه ليخطرنا بالمشكلة وليتمس إلينا
تأجيل قدومنا عليه للغد حتى تهدأ الخواطر قليلاً. ولم يخبرنا الرسول بأكثر من أنّ
مجموعة صغيرة من المتعصبين العنيفين بالعاصمة قد استمروا -رغم تهديد الحاكم-
بحراسة بساتين الشرافا الخارجية وهي أولى مستوطنات الوادي لمنع المرور إلى داخل
المدينة. وكنت أخشى أن يبذل رفاقي المساعي لمحاولة إثنائي عن الاستمرار في
المغامرة، ولكنني شعرت بالارتياح عندما وجدت أنّ الرأي العام كان يؤيد ألا نترجع
عن خططنا في التحرك غداً. غادرنا ابن جلهم في فترة ما بعد الظهرية يحمل
خطاباتٍ للحاكم وإنذاراً شديداً للهجة لأهل اللدام.

بعد ذلك قضيت بقية اليوم متجولاً في الواحة، وهي قرية بها رقعة زراعية
ممتدة ولكن الزرع بها لم يكن جيداً. كان طول القرية نحواً من ميل واحد،
وعرضها نصف ذلك، وتحتل بقايا من بطن الوادي الذي لم يُدفن، وبها مياه وفيرة
لكنها مالحة، وعمق الماء بآبارها ثلاث إلى أربع قامات. وكانت هناك بئر واحدة

عذبة الماء من مجموع ١٥٠ بئراً موزعة على الرقاع الزراعية المتفرقة بالقرية، وكثير منها آبار مهجورة أو في حالة خربة. أهم معالم القرية هي غابة من أشجار الأثل، وهي خير ما رأيته منها في الجزيرة العربية، ترتفع لأطوال عظيمة، وسيقانها ضخمة تُزَيِّنُها بالكامل ثمارها: عناقيد العنب وهي عناقيد من ثمار لَبِيَّةٍ صغيرة وردية اللون، عرفت خصائصها كصبغ ويُقال إنها لا توجد إلا في الجنوب، إذ أن أثل شمال الجزيرة العربية عقيم بالكامل. أما بساتين النخيل بالقرية فهي في أسوأ حال، تغطي مساحة كبيرة تنتشر فيها جذلات النخيل الميتة وبعض من نخيل قزمية عقيمة. لاحظت أيضاً بعض حقول القطن التي كانت تحتلُّ عشرة أو اثني عشر فداناً وبها نباتات ضعيفة النمو وكان آخر بقاياها في سبيله للزوال بفعل الأغنام الجائعة. كانت ترى أيضاً بعض كميات من الخضراوات والبرسيم. أما المحصول الرئيس الذي كان يجد الاهتمام والجديَّة فهو القمح. كان ما يفيض عن حاجتهم من القمح هو الوسيلة الوحيدة لشراء التمر والبن من الوادي.

يعد الأهالي كَمَدَةً جزءاً من واحة الوادي التي تبعد عن طرفها الشرقي بحوالي اثني عشر ميلاً، ويسكنها حوالي ١٠٠ نسمة من الحقبان، وهم مجموعة من آبات الدواسر كمجموعة العمور. لذا لا يعود أصلهم للدواسر. وتسكن هذه الجماعة الصغيرة في قرية صغيرة محاطة بأسوار وبها قلعة -لا يعتدُّ بها- في ركنها الجنوبي الغربي، وبوابتها الوحيدة في الجانب الشمالي، وبالدخول منها يجد المرء فناءً فسيحاً تشعَّب منه بيوتها الطينية وطرقها البائسة. لم يُدِ أهل القرية روحاً عدائية نحونا، وكان الأمير ودوداً جداً، وشاركنا احتساء القهوة أثناء النهار ووجبة العشاء، واستضافنا لشرب القهوة مساءً في بيته. وكانت قاعة استقباله غرفة صغيرة مربعة تغطي أرضها رمال ناعمة بدلاً عن السجاد أو الحصير، ولم تكن قهوته

جيدة نظراً لرداءة الماء . كان معظم سكان القرية قد مارسوا في وقت أو آخر اصطياد اللؤلؤ من الخليج ، ولكن لابدَّ أن نداء الوطن كان من القوة بحيث يجرُّهم للعودة إلى مكان بائس كهذا .

عاودنا في اليوم التالي الرحلة التي قطعناها . وكانت المنطقة الممتدة أمامنا مختلفة عن الإقليم الذي قطعناه في اليوم السابق ، إذ بدا أمامنا سهلٌ رملي لطيف التموج تتناثر فيه نباتات متفرقة من الغضا وتلوح هنا وهناك قليل من الكثبان والتلال الرملية . كان حاجز طويق الممتد خلفنا على البعد هو الذي يكسر حدة الرتابة في الأراضي الشاسعة الخالية من المعالم ، وكان طريقنا يجري بطول منخفض ضحل كنتُ أظنه في البداية بطن الوادي ، ولكن اتضح لي لاحقاً أنه أحد الأحواض الكثيرة التي تعبر السهل ، وليس ذلك الوادي الذي جرى فيه السيل العظيم الوحيد الذي يتذكره المعاصرون .

كانت المسيرة مقبضةً بعض الشيء ، وكان الهواء بارداً ورطباً في الصباح الباكر ، ولم نكن ندري ما تخبئه لنا الساعات القليلة القادمة ، كنا نعلم أننا سننظر إلى الوادي على أي حال ، ولكن لم ندرِ إن كانت ستطوئه أقدامنا أم أننا سنعود لنروي قصة منعنا من ذلك . سرنا في صمت ساعتين من الزمن في اتجاه سد رملي أخفى عنا المشهد الذي يقع خلفه . وقبل أن نبغده بقليل شاهدنا رقعة من شجيرات الراك في حوض يقع عن يميننا تقريباً وعلمنا أننا سنكون بعد لحظات على مرأى من مراقبي الجانب الآخر . توقفنا وأنخنا المطايا على سفح السد ، وتقدمنا بحذر على الأقدام لترتقي قمته للتطلع لما يحيط بنا من مكان .

٤- واحة الوادي:

سيبقى المشهد الذي كحلّ أعيننا بعد أن بلغنا قمّة التل الرملي - حيث وقفنا لتناول الإفطار ولمراقبة الأنحاء- سيبقى لأمدٍ طويل في ذاكرتي لأسباب عاطفية وليس لأمر تتعلق بمزايا ذلك المشهد.

لقد رأيت في النهاية ما أتيت قاطعاً كل تلك المسافة، عابراً هذه الصحاري لرؤيته. كانت عيناى هي أول عينين لرجل غربي تطل على بسايتين نخيل وادي الدواسر. كانت تقع على بعد ميلين منّا في اتجاه الشمال الغربي تخوم نخيل الشرافا يحرسها كما علمنا قنّاصة معادون ومن خلفها تمتد على الجانبين رمال الصحراء. كان شريطاً عريضاً من النخيل يمتد على مدّ البصر في ناحية الغرب بطول منخفض ضحل هو وادي الدواسر نفسه.

لاحظت هنا وهناك من خلال النخيل بيوت طينية لقرى الوادي، وكذلك في السهل المكشوف الممتد إلى الجنوب من النخيل. وفي الطرف الجنوبي لذلك السهل كان بطن الوادي العاري الذي شقّقه الشمس يجري لعدد من الأميال نحو الرمال التي كانت تتعاضم كلما بعدت المسافة، ولاحظت على البعد في ذلك الاتجاه رقعة من أثل تسمى غيف ورقعة عظيمة من الشجيرات يسمونها راقة. وكان يمتدّ خلفنا على البعد حاجز طويق الطويل، وبدت فتحة تمرة إلى الشرق من موقعنا وكانت أطراف الحاجز المرئية في الشمال الغربي والجنوب الشرقي. هكذا كان المشهد.

لم نرَ ما يدلّ على تحركات بشرية، وكنا قد فرغنا من إفطارنا وأعددنا بنادقنا تحسباً لكلّ طارئ. عدنا لنركب المطايا وما لبثنا أن سرنا فوق السهل في مجموعة

متقاربة وفي حرص ومراقبة لكل ما يمكن أن يحدث. ذهبنا بعيداً عن أطراف شريط النخيل حتى لا نؤخذ على حين غرة، ولكن لم نكد نتحرك قليلاً حتى لاحظنا حركة للرجال في السهل الممتد أمامنا. لقد كانوا راكبين وكانوا يتجهون نحونا، وتقلصت الشُّقَّة بيننا وبينهم بالتدريج، ودققنا النظر لنرى إن كان ابن جلهم أو رشيد من بينهم.

وكنا على أهبة الاستعداد لاستقبالهم بما يلزم إن ثبت أنهم أعداء. وعندما تناقصت المسافة التي تفصل بيننا لربع ميل زادوا من سرعتهم مُسهرين أسلحتهم وهم ينشدون أغاني الحرب، يسبقهم اثنان يمتطون مهوراً عربية قزمية. وبلغ بنا القلق مداه عندما توجه نحونا الخيالة وراكبو الإبل وهم يصيحون ويمرّون بيننا ومن حولنا في مناورات غريبة تتأرجح بين الحرب الصورية والحقيقية. لقد كانوا أصدقاء لا أعداء، كانوا ابن جلهم ورشيد وتابعو الأمير، وحينئذهم بحرارة.

كنّا الآن في محاذاة قرى وبساتين الشرافا، وكان وجود أشكال داكنة فوق أسطح المنازل مقياساً للاهتمام الذي صاحب زيارتنا. واصلنا المسير بناءً على نصيحة ابن جلهم للابتعاد عن حزام النخيل بمسافة كبيرة دون أن نكبج جماح مطايانا حتى نبلغ حمى قصر الأمير.

ولكن عندما بلغنا نقطة بإزاء القسم الثاني من النخيل تسمى اللغف، استقبلنا وفدُ برئاسة أمير نعيمة الذي استجبنا لدعوته الودودة الملحاحة لتشريف قريته بالزيارة ريثما تُحلُّ المشاكل مع أهل اللدام، ودعّم الأمير دعوته بأن أخبرنا أنّ جماعة معادية كانت لا تزال تختبئ في رقعة من الأثل أمامنا. لذا قررنا أن نتوقف ثانيةً فنصبنا خيامنا خارج أسوار قرية نعيمة. كان هذا القرار بالنسبة لي ذا مزيتين؛

إذ كان يُتيح لي فرصة لم تكن لتسنع لي لتفقدُ الجزء الشرقي للواحة بأناة وروية، كما كان يسمح لي بالاستمتاع بكرم أهلها البين.

عندما وصل ابن جلهم إلى اللدام، وهو رجل معروف في هذه الأنحاء، ثار فيما يبدو نقاش مطوّل حول الزيارة، واعترض أهل اللدام بملء الفم ثم أعلنوا أنهم لا يتحمّلون المسؤولية الأخلاقية لتلك الزلّة التي سمحت لهم بالقدوم، ولكنهم رغم ذلك سحبوا اعتراضهم وأزالوا خط المواجهة الذي كان سيقاوم دخول الزوّار إلى الشرافا.

ثمّ جرت استشارات أثناء الليل سادتها روح أقلّ مهادنة، وندموا على قرارهم النهاري، ثمّ نقضوه وأعلن البعض من سكان اللدام أنهم لن يسمحوا لي بأن أمرّ عبر مدينتهم، ثمّ قاموا بحراسة مداخلها. لم يستطع الأمير - حسم الأمر، لكنه أوضح لإبراهيم في رسالته أنّه لم يستطع السيطرة عليهم، بينما قام القاضي وهو من أهل الرياض، ويدعى عبدالعزيز بن بشر بالانسحاب ليلاً من المدينة قاصداً الصحراء ليتحاشى تحمّل مسؤولية تدنيس رعايته الروحية للمدينة بوجودي، أو مسؤولية المقاومة المسلحة لدخولي.

لقد مهدنا السبيل على أي حال لدخول الوادي، وكنا في الوقت الراهن بين أصدقاء، ولكن لم تكن فرص تقدّمنا للأمام طيبة. ولقد فكر إبراهيم وزملاؤه كثيراً حول الأمر، بيد أن النقد اللاذع الذي كان إبراهيم قد تعرّض له عند تناوله بطريقة فجّة لقضية السليل قد أخلّ باتزانة العقلي.

ولا بدّ لي أن أعترف بأنّه كان فوق ذلك مُثقلًا بهموم مسؤوليته في تأمين سلامتي. ونتيجة لهذه الضغوط صار إبراهيم متذبذباً متأرجحاً بين الجبن والتّظاهر

بالشجاعة، وهو ما كان يمكن أن يقود لعواقب وخيمة لولا أن سادت حكمة بعض الحكماء من بيننا.

كانت فكرته الأولى هي أن ننسحب كمجموعة من الوادي لمكان آمن في مرتفعات طويق، عندها نكون في حرز أمين مؤقت، ثم نبعث في طلب النجدة من ابن سعود وننذر أهل اللدام بما سيحلُّ بهم من جرّاء غضب الملك العارم. وما أن طُرحت هذه الفكرة السخيفة حتى تداعت بسبب الرفض الجماعي لها من ابن جلهم وبقية القوَّاد. كان عزمهم ألا نلن وأن نتقدّم مهما كان الثمن بعد أن نحذّر المعنيين بالأمر للتناجى الوخيمة التي لا بدّ أن تحلّ بهم إذا ما تمادوا في المعارضة.

لقي هذا الاقتراح تأييداً حارّاً من أمير نعيمة الذي كانت دوافعه بلا شك ذات طابع سياسي، إذ رأى في الأحداث التي توشك أن تقع سبيلاً لأن يكبر في نظر ابن سعود، وما يمكن أن يجنيه من هذا أمام معارضيه المحليين. وفي حقيقة الأمر كانت الغيرة والعداوات بين قادة المنطقة هي ضمانتنا للنجاة والسلامة.

وبعد اتخاذ هذا القرار بُعثت خطابات ثلاثة لمعسكر الأعداء. أرسل أحدها للأمير والثاني للقاضي وبهما تهديد صريح بأن ضعفهما في التعامل مع مثيري الشغب الذين كان يفترض أنهما يفرضان سيطرتهم عليهما، لن يجلب لهما سوى غضب سيدهما، مع التصريح لهما بأنهما سيكونان المسؤولين المباشرين في حالة حدوث ما لا تحمدُ عقباه في الغد، وهو اليوم الذي قررنا أن نواصل فيه تقدُّمنا. أمّا الخطاب الثالث الذي تَمَّت صياغته بعبارات قويّة فلقد كان موجهاً لأهل اللدام، أعلن فيه قبولنا لتحديهم ويحذرهم إن لم يتراجعوا فوراً عن اعتراضهم لنا ويرسلوا

ممثلين لهم ليصطحبونا لقصر الأمير. بقينا في انتظار ردود هذه الخطابات في قلق، حتى تسلمنا رداً من الأمير وآخر من مجلس اللدام في وقت الأصيل، وكان القاضي قد تخلّى عن مسؤولياته بأن طلب عطلة عن العمل وذهب للصحراء. أكّد لنا الأمير في رده أن المشكلة قد انتهت، وأنه يمكننا التقدّم بكل ثقة وأمان. أمّا المتهمون أنفسهم فقد أظهروا ندمهم وأسفهم العميق للتصرّف الذي بدر منهم، وطلبوا العفو، وأكدوا لنا أنه بإمكاننا أن نمرّ نحو غايتنا دون خوف من اعتراضهم لنا. إن صياح الأعراب يفوق كثيراً ما تسببه عقّتهم من أذى، ولكن استسلامهم التام كان مفاجأة لنا.

صار كلُّ شيء الآن حسناً، ولم يكن هناك ما نخشاه سوى أن يغيّروا رأيهم أثناء الليل، وكان ما ينبغي أن نحتاط له هو الخيانة المحتملة أو التعصّب الفردي، لذا لم نخلد للراحة بل ضاعفنا من تحوُّطنا. حيث كانت هناك حراسة طوال الليل حول المعسكر تحسُّباً لهجوم مفاجئ. وطُلب مني أن أطفئ نور خيمتي في ساعة مبكرة وأن أغلق مصراعي الخيمة قبل أن أستسلم للنوم. كانت الليلة - لحسن الطالع - معتدلة البرودة، ولم يعكّر صفوها شيء.

وفور وصولنا لنعيمة نهار ذلك اليوم كانوا قد أخذونا لمنزل أميرها فيصل بن سويلم لتناول القهوة. لقد كان أميراً ودوداً. وفي الحقيقة كان يقوم بمهام الأمير، إذ أنّ شاغل ذلك المنصب هو محماس ابن سويلم الذي كان في تلك الأثناء بعيداً عن القرية مع بدو بُريّك، وهو قسم من المساعرة، من الدواسر وهو القسم الذي يتزعمه. كان فيصل وأخوه الأصغر هذلول -الذي ساهم في استضافتنا- أبناء عم محماس الذي كلفهم للعناية بشأن القرية- ريثما يعود إليها. كان دخولنا لمسكنهم من خلال فتحة في حائط القرية يبلغ طولها تقريباً قدمين. جلسنا نحتمي القهوة

== قلب الجزيرة العربية ==

في قاعة استقبال متواضعة أشبه بالمر منها بال غرفة ، طولها يقارب عشرين قدماً وعرضها أربعة أقدام ليس إلّا . وبعد زمان التحق بنا الرجلان وتناولوا معنا وجبة الغداء . وأثناء ذلك تجمهر عدد من أطفال القرية على بعد مناسب من حولنا . بعدها تمّت استضافتنا للعشاء في منزل ابن عمهم ؛ منزل الأمير كان هذا في وسط القرية في نهاية طريق يقود من البوابة الحقيقية الوحيدة للقرية . وباستثناء هذه البوابة كانت هناك حوالي اثنتا عشرة فتحة في أجزاء مختلفة من السور المحيط بالقرية ، وكلها تشبه تلك الفتحة التي دلفنا عبرها لمنزل فيصل . وتقفل هذه الفتحات أثناء الليل بعوارض خشبية لمنع الأعداء واللصوص .

كنا قد أمددناهم باللحم الذي قدموه لنا في وجبة العشاء إذ أن الخراف في هذا الموسم تكون بعيدة هناك في المراعي ، ولا يمكن الحصول عليها في الوادي . وكان أساس الإناء الضخم الذي وضع أمامنا قطع من الخبز بدلاً عن الأرز الذي لا يوجد هو الآخر . ولا شك أن مستوى العيش بين الدواسر جد منخفض ، ويتكوّن غذاؤهم الرئيس من التمر واللبن والخبز المخضّل . وأحياناً يتنوّع طعامهم بعصيدة مصنوعة من القمح .

خرجت في فترة ما بعد الظهر في حراسة مشدّدة لأتجوّل في اللغف أو الجزء الخاص بالمساعة في الوادي . كان هناك شريط عريض من مساحة خالية يبلغ طولها نصف ميل تفصل زروع الشرافا في الشرق عن الجزء الغربي المكوّن من كتلة كثيفة من النخيل التي تقع جزئياً في منخفض الوادي وجزئياً على جانبه الأيسر . كانت الواحة تحتوي على خمس قرى صغيرة ، اثنتان منها في حالة خراب تام . كانت نُعيمة وقُعيّز المتجاورتان تحتلان موقعيهما على منحدر لطيف على الجانب الأيمن للوادي ، وكانتا صغيرتين وتحيط بهما الأسوار ، ويسكن أولاهما ٤٠٠ نسمة ، والثانية ٣٠٠ نسمة . وكان سكان قُعيّز مثل شيخهم فيحان بن قُويّد ، من

قسم آل حسن التابع للمساعةرة. وكانت قرية نزوى الصغيرة غير المسورة تقع على بعد ربع ميل إلى الشمال من هاتين القريتين عند سفح منحدر الجانب الأيسر من الموقع الذي يكون فيه حزام النخيل زاوية تستكن القرية بين ضلعيه. كان يسكن قرية نزوى قسم آخر من المساعةرة، هو قسم آل بو سباع وعددهم حوالي ٣٠٠ نسمة، وزعيمهم شجاع بن خريم. وتقع إلى الأسفل في مهد الوادي بقايا قرية دارسة يسكنها الحنابجة، وهم فرع صغير من قسم الشكرة التابع لمجموعة آل حسن، وهم يكونون بقايا غزو الدواسر الأول الذي كان قد قاوم وبقي رغم عداء رجال القبائل المحيطين بهم، إلا أن الحظ خانهم بعد صمودهم، ففي العام السابق لزيارتي غمرتهم السيول لتزيلهم عن الوجود باستثناء عدد قليل تبقى منهم لا يتعدون ثلاثين نسمة موزعين على بيوت متناثرة، ثم نزحوا لينضموا لأقربائهم في الأفلاج تاركين خلفهم حطام قريتهم الصغيرة وجذول النخيل لتقف شاهداً على صنع الله. وفي مقابلة هذه الخرائب على الجانب الأيمن توجد بقايا رُوية^(١)، وفي قلبها يعيش على الكفاف حوالي عشرين من الناجين من مستعمرة قديمة للعمور^(٢)، ويزرعون رقعة صغيرة من الأرض بالحبوب حتى يأتي الوقت الذي يقرر فيه جيرانهم من المساعةرة ضمها إلى أراضيهم. وقصة اللغف هي رواية محزنة عن النزاع والبؤس.

(١) روية: هضبة مرتفعة مشهورة، تعد أعلى رأس في العارض الجنوبي، تقع بين واسط والهدار بالأفلاج. ابن خميس، معجم اليمامة، ج ١، ص ٥١٩. (المراجعون).

(٢) هاجر معظم أفراد العمور لثمرة، وهاجر الحنابجة للحمر، في مرتفعات الأفلاج. ويوجد قصر خرب في ميدان مكشوف يقع بين أقسام اللغف والشرافا، ويقال إنه كان مسكناً لأحد أعيان العمور في الماضي؛ هو حمد بن جبل. (المؤلف).

تقع قرية الشرافا إلى الشرق من اللغف، ويمتدّ شريط نخيلها في غير انتظام، وبها بعض البساتين العظيمة، وقدر كبير من الأثل - وهو مزدهر في هذا الوقت - ويسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة من قسم مستقل من الدواسر تستمدّ القرية اسمها منه، وهم من أقرباء المساعرة، والبعض يعدمهم قسماً من أقسامها. ويسكن هؤلاء الأهالي في القرية المسوّرة الرئيسة التي تسمّى مشرف، وفي قرية أصغر منها مقسمة إلى جزأين تسمّى العويضات وفي قصور متناثرة^(١). تعترف كل هذه المجموعة بزعامة الشيخ مسفر بن هذلول الذي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت بالمنطقة، إذ كان في زيارة للرياض.

لقد تمّ إيقاظي مبكراً صباح اليوم التالي ٣٠ مايو (أيار)، كما تم تقويض المخيم، وبحلول الفجر كان كلّ شيء معداً للرحيل - ودّعنا مضيفنا قائلاً: «في أمان الله»، وكان ردنا عليه: «خلف الله عليك». امتطينا الرواحل وبدأنا المرحلة الأخيرة القصيرة من المسيرة، وكنا تحوطاً نسير متقاربين وبنادقنا مجهزة، ورغم أن التأكيدات التي بلغتنا قد أزالنا كثيراً من قلقنا، إلا أنه كان هناك احتمال في أن تحدث حماقة صغيرة من أيّ من الجانبين لتجبرنا إلى مالا محمد عقباه. كان يتقدمنا حُداة لركبنا اثنان من الفرسان من تابعي الأمير. سرعان ما تجاوزنا فخذ المساعرة لنجد أنفسنا بجانب أوّل نخيل الجزء الأوسط على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى اليمين. كنا حتى هذه النقطة نعبر سهلاً رملياً، بيد أنه أفسح المجال للحصباء التي امتدّت على جانب الوادي الأيمن ثم ارتفعت لتكوّن تلاً خفيضاً، كان جانبه الشمالي يطلّ على بطن الوادي وعلى مدينة اللدام نفسها التي بدت أمامنا غير بعيد

(١) أهم هذه القصور هي مراديج ومنصور في الطرف الغربي لذلك الجزء، والشمامية وهي قصر وبثر في الوسط. (المؤلف).

بحوائطها الطينية. وكانت تقع عن يسارنا - على بعد ثلاثة أرباع الميل على حافة الرمال- القرية الصغيرة البائسة الخربة غير المسورة المسماة المعتلى، ويسكنها فقط حوالي ٢٠٠ من المزارعين العبيد التابعين للمخاريم - وهو قسم رعوي مستقل للدواسر - وهم مُلاك بساتين النخيل الغنية التي تواجه القرية التي كانت تتناثر حولها شواهد من مخلفات موسم الحصاد. ويقال إن أفراد هذا القسم يبلغ عددهم ٢٠٠٠ رجل قوي، منهم عدد لا يقل عن ٢٠٠ من الخيالة، يزدرون حياة الاستقرار ويفضلون التجوال في الصحاري مع قطعان إبلهم والخراف، ولا يأتون للقرية إلا في زمن خراص التمر ليجنوا مكاسب الزراعة التي يُعنى بها مزارعوهم من العبيد المقيمين.

كان وجود عدد من القصور الخربة على السهل بين المعتلى وشريط النخيل ينبئ بوجود مستوطنات قديمة، بيد أنني لا أعرف التغيرات التي حدثت عبر الأزمان، وكيف زال سكان تلك المستوطنات عن الوجود! بالطبع لم يكن الأمر عائداً لأي ضعف في قوة القسم الذي يبدو أن أهله يتمتعون بسمّة الشجاعة في الوادي. ثم تخطّينا القرية الثانية واسمها مقابل، وهي شبيهة بالمعتلى بيد أنها تصغرها وهي أقرب لحزام النخيل. ويسكن القرية حوالي خمسين من المزارعين العبيد إنابةً عن أصحابها من البدو، وهم فرع ضعلوق من فخذ الرجبان.

ويفضلنا الآن عن أسوار اللدام سهلٌ مكشوف، يصل طوله تقريباً إلى ميل واحد. كان طيف الأسوار يعظم أماننا من خلال ضباب الصباح كلما اقتربنا من المدينة. وصاح الأتقياء في مجموعتنا ونحن نقترّب من نهاية المحنة. بقولهم: «اذكروا الله». وتقدّمنا في تودة وكان الفارسان قد سبقنا كثيراً، وكانت أسطح المنازل منقطة بأشكال سوداء وهم الذين تجمعوا ليشاهدوا مرور الكافر. وفجأة

خرج شخصان من أسوار المدينة، وجريا نحو موقع خربٍ منعزلٍ يبعد عن موقعنا بعض الشيء، فعدا خلفهما حداة ركبنا لمحاولة إرجاعهما، وتبع ذلك بعض الاضطراب في أوساطنا فأخطأنا دون قصد بدخولنا إلى أسوار مقبرة مهمة في الركن الجنوبي الشرقي للمدينة، وتعثرنا ثانية محاولين الخروج منها ونحن نأمل ألا تكون زِلَّتْنا هذه قد لُوحِظت. وبعد لحظات كنا بالقرب من المدينة. ولخمس دقائق التي تعد من أقصى درجات التوتر التي تعرضت لها على الإطلاق - سرنا فيها في صمت وتجهّم بطول سور المدينة الجنوبي، بينما كان أهلها المتجمهرون يحدّقون فينا. وكنا نعلم أنّ صيحة واحدة فقط من أحد، أو عياراً نارياً يُطلقه مجنون قد تؤدّي إلى كارثة تهدد سلامتنا، إذ كنا تحت رحمة من يحيطون بنا من كل جانب، ومن فوق كل سطح. وستبقى تلك اللحظات - التي استطالت وكأنّها دهر - زمناً طويلاً في ذاكرتي. ولكم تنهّد رفاقي طويلاً بارتياح عندما بلغنا نهاية السور. ومررنا عبر سهل مكشوف بين مدينتي اللدام ومشرف ثم أنخنا المطايا أمام بوابة برزان، وهو القصر الشبيه بالقلعة الذي يقيم فيه حاكم وادي الدواسر.

استقبلنا في مدخل قصره الحاكم عبدالله بن محمد بن معمر، وهو من أهالي القصيم^(١) وابن عم فهد بن معمر حاكم ذلك الإقليم. وكان استقباله لنا ودوداً، وبدأت عليه علامات الارتياح، وقادنا على الفور لقاعة اجتماعات كبيرة تقع إلى الجانب الأيمن من الردهة حيث طلب منا أن نجلس لتتناول القهوة. وقد كان رجلاً ليّن الطباع معتدل النشاط متمهلاً، وكان في منتصف العمر يميل إلى الطول قليلاً.

(١) عائلة المعمر هي في الأصل من العارض، وهي سلالة الأمراء السابقين للعيينة في وادي حنيفة.

ترك الرجل منذ البداية أثراً طيباً في نفسي رغم كل ما سمعته عن مثالبه، ورغم ضيق أفقه فقد كان دون شك غير ملائم على الإطلاق للاضطلاع بهذا المنصب الهام الذي آل إليه قبل سنتين خلفاً لسعد بن عفيصان الذي نُقل إلى الأفلاج. ولم تكن تعوزه القوة والمقدرة على اتخاذ القرارات اللازمة للحاكم الجيد لقبيلة وإقليم مضطربين فحسب، بل كان مشرباً لحد كبير بمعتقدات الإخوان، ولذلك كان عرضةً للتعاطف مع أكثر العناصر التزاماً بما قد يتعارض مع القانون والنظام. ثم إنه لم يكن المتصرف المطلق في منطقته كما كان ابن عفيصان. ولكن إنصافاً له نقول إنه لم تكن لديه طموحات سوى أن يعتزل العمل العام ليتفرغ لحياته الخاصة، وأن يكرّس جهده للأمور الدينية.

كان الحاكم عند وصولنا يصرف أعباء منصبه مجتمعاً بالأهالي، وكان هناك عدد كبير متنوع المشارب في قاعة الاجتماعات. أوقفت الأعمال وقادوني لمقعد الشرف بجوار الموقد تالياً للحاكم في مجلسه. كان الرجل الذي أخلى لي ذلك الموقع هو سمعان بن مطرحة، زعيم فخذ آل رشيد من قبيلة عرجا، وهو شديد الحزم كثر الحاجبين عريض الصدر، قدّم منذ عهد قريب في أمر يتعلق بقضية، وكان حينها على وشك زيارة الرياض وفي صحبته خمسة رجال شديدي التحفّز. كانوا من سكان المرتفعات، سحناتهم بيضاء. فكانت سحناتهم وملابسهم توهم بأنهم كانوا أجانب، ولم يكن الرجل منهم يلبس شيئاً سوى غتره على الرأس وثوب أبيض قصير متسخ يجمعه حول خصرته بحزام عريض موشح بالذخيرة النارية، ويزينه بالجنب غمد خنجر مقوّس. وكان ممثلو فخذ آل فهد قد سبقوا منافسيهم للرياض. وكان أحدهم قد عاد لتوّه من هناك، وهو بدوي يدعى بليح. وكان أفراد مجموعة فخذ آل فهد كثيرين في ذلك المجلس من بينهم شاب صغير

في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. وكانت جلسته الواثقة - ضمن جماعته التي يبدو أنه يتأسسها - تنمُّ على أن سيكون له شأن. وكان حديثه يدلُّ على أنه مطوَّع.

بدا عبدالله في بداية الأمر زاهداً في الحديث معي، لكنني لم أشعر بالندم أو تأنيب الضمير لعلمي أنه كان مسؤولاً بقدر كبير عن المشاكل التي سبقت حضورنا. ولكن عندما فرضت عليه نفسي سرعان ما ذاب تحفظه وتحسنت علاقتنا كثيراً جداً. ولكن في ذلك الوقت احتلَّ إبراهيم الساحة منفرداً، وهو لم يكن ليضيق هذه الساحة ليعطي محاضرة عن سخطه الذي أحسَّ به إزاء ما حدث لنا في اللدام. وما كان للعبارات السلفية الطُّهرية أن تجري على شفاه أحد في الجزيرة العربية بالطلاقة التي تجري بها على لسان إبراهيم، وفي ذلك الإطار لم يكن ليضيق أيَّ فرصة ليقدم موعظة عن الفضائل كما يراها هو.

وجلسنا هكذا لأكثر من ساعتين في انتظار الإفطار الذي أعدّه الحاكم لنا. وكانت عملية التعارف قد تمت فور وصولنا. ولكن بعد أن اعتدت على جوّ المجلس قدّمت نفسي إلى سمعان بعد أن استفسرت من طامي عنه. ودمدم الرجل المسن قائلاً: «ابن سعود غصبنا على شوفتك، ولو لم يكن الأمر كذلك لقطعنا حنجرتك» ومثَّلَ ذلك بأن مرَّرَ أصابعه الخشنة فوق رقبته، وأضاف: «إنَّ أهلنا في نجران ما كانوا ليترددوا في قتلك، لكنَّا خُدَّام ابن سعود». وأجبت قائلاً: «إنني سعيد جداً بالتعرّف عليك. وإن كنت حقيقة في طريقك للرياض، فإنني آمل أن تصحبني أنت ومن معك في رحلة العودة». واستجاب بسهولة لهذا الاقتراح. وبحلول المساء كانت محاولات اكتساب صداقته قد جعلته ودوداً جداً. على الأقل

جلس بجواري أثناء تناول وجبة المساء وبعد ذلك أيضاً عند تناولنا للقهوة. وعندما اقتنعت بأنني قد عرفته بالقدر الكافي غامرت بأن أبديت إعجابي «بالجنبية» أو الخنجر المرصع بالجواهر في حزامه. وما لبث أن نزع وأعطاني إياه قائلاً «هو لك. ولكن ماذا ستعطيني عوضاً عنه؟» فصرفت عرضه بالضحك وأرجعته له. لقد كان الخنجر مثلاً للفن الحضرمي. وكان مقبضه مزيناً بأزرار من عقيق وغمده بطبقة ذهبية. وأرجعته إليه وأنا آمل أن أصل معه لاحقاً إلى اتفاق بشأنه. ولكن ذلك لم يتم.

كانت المشكلة التي أتت بممثلي فخذي آل رشيد والفهد للمثول أمام محكمة نائب ابن سعود في الوادي - وكان في هذا دلالة على امتداد نفوذ ابن سعود منذ عهد قريب نحو الجنوب - هي قضية مواجهة حديثة بين القسمين. وفي غمرة حزنهم لما حدث قام القسم المتضرر فوراً بإرسال مناديبهم للرياض. ولكن وجهوهم هناك لرفع الأمر إلى نائبه في الوادي، وكان دفع ذلك قد عاد لتوه من الرياض بناء على ذلك التوجيه. استمع الأمير لأقوال الفريقين في اليوم الذي قضيناه في برزان، وفي اليوم الذي سبق مغادرتنا لها توصلوا لاتفاق، إذ وافق سمعان في ذلك الاتفاق نيابة عن فحذه على دفع مبلغ ٦٠٠ دولار تعويضاً عن الاستيلاء على الإبل، ومبلغ ٨٠٠ دولار عن كل من القتلى، وبذا صارت جملة المبالغ المستحقة ٨٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم فوق طاقة قبيلة رعوية. كان سمعان بطبيعة الحال يأمل أن يجد مني بعض الإسهام المادي للوفاء بالتزامه المالي الجديد. ولكنني اشترطت بوضوح أن يصحبني في رحلة العودة ولكن حسمه القضية حينذاك جعل عودته للرياض غير ذات معنى، ولذلك تداعى اتفاقنا الأول. ورغمما عن ذلك أتى إليّ في يوم مغادرتنا طالباً المال مني، بيد أنه لم يظهر ضغينة

أو حقدًا عندما أوضحت له أنني لم ألتزم بأن أدفع له شيئاً. كنت أحب أن يصحبنا في رحلة العودة وأسفت جداً لأنه لم يفعل ذلك.

بقينا في ضيافة عبدالله بن معمر في قصر برزان لفترة سبعة أيام كاملة، حتى عصر يوم ٥ يونيو (حزيران) وهو قلعة مربعة بين المدينتين المتنافستين: اللدام ومشرف، لكنها كانت أقرب للثانية. كانت القلعة العظيمة التي أنشئت قبل عام واحد بفضل أسوارها الطينية الخشنة العالية وأبراجها الركنية الطويلة تتحكم تماماً في المدينتين معاً. إذا نظرنا للظروف السياسية للوادي، والتي تجعل الحفاظ على الأمن مهمةً جدّ عسيرة، إذا نظرنا لكل هذا أجد أنّ اختيار ذلك الموقع كمسكن للحاكم مثالياً وملائماً أكثر من القلاع التي تخرّبت الآن، والتي بناها في السابق أسلاف ابن سعود في عهودهم السابقة. أقدم هذه القلاع الخربة تسمى بهجة ويتناثر حطامها لمسافة ربع ميل إلى الجنوب من اللدام، وقد يعود تاريخها إلى الجزء الأول من القرن الماضي، وقد تعود إلى عهد حكم سعود الكبير. ومهما كان الأمر فإنّ خرابها يبدو وكأنّه تزامن مع عهد الفوضى الذي ميّز الاحتلال التركي لأعالي نجد بعد الاستيلاء على الدرعية وتخطيطها. كان الملك التالي من بيت آل سعود والذي فرض سيطرته على الوادي هو فيصل الذي بنى قلعة عظيمة تسمى أبا الطوق، قد تعود التسمية إلى الخندق المائي الذي مازال يطوّق كتلها العظيمة البالية التي كان نصفها من كتل البناء ونصفها الآخر من الطين، وكانت قرية من الحائط الشرقي للعاصمة. هذه القلعة أيضاً أُحيلت إلى أنقاض في فترة الفوضى التي سادت كل المقاطعات الجنوبية بين عهدي فيصل وحفيده الذي يحكم الآن.

وجدنا في داخل برزان الذي ليس له سوى بوابة واحدة تقع في الجانب الشمالي، وجدنا فناءً فسيحاً تحيط به غرف السكن والحظائر. وكانت قاعة

الاجتماعات الكبرى تقع إلى يمين المدخل . ويبلغ طول هذه القاعة العظيمة ثلثي طول السور الخارجي تقريباً، وتغطي أرضيتها طبقة سميكة من الرمال الناعمة . وفي الجانب المقابل لها يوجد مسجد صغير، وعلى سطحه غرفة صغيرة يبدو أنها غرفة اجتماعات خاصة خصصت لاستخدامي في أيام إقامتي تلك رغم أن المدخل الوحيد إليها كان درجات تقود إلى الأعلى مباشرة من فناء المسجد، كانت مساكن الأمير الخاصة تحتل الجزء الأعظم من الحائط الشرقي، والذي كانت به أيضاً غرف الضيافة والمطبخ، بينما امتدت غرف الأمير لتشمل جزءاً من الحائط الجنوبي، وكانت بقية المباني إسطبلات . كما توجد بئر في ركن ساحة القصر، كما كان يجاور قاعة الاجتماعات حوش يحيط به جدار طيني قصير، وبه موقد للقهوة إذ أن الأمير وضيوفه كانوا يجلسون فيه في كل الأوقات التي لا تسطع فيها الشمس على الساحة، يجلسون في هذا الحوش ليحتسوا القهوة وهم يخوضون في القيل والقال .

كان الحاكم - وفقاً للتقاليد - يستضيفنا بوجبات سخية في منتصف النهار وفي الليل، وكانت وجبة المساء تقدّم في الحوش المذكور وقوامها لحم الضأن والخبز المشرب وتوضع كميات كبيرة منها على أطباق دائرية مسطحة كبيرة الحجم . ولعلمي بمصاعب الحصول على الطعام هناك ولأنّه كانت هناك بقية من الخراف التي ابتعناها في السليل فلقد أصدرت أوامري لإبراهيم ليستجدي الأمير لتركنا نهتم بأمر وجباتنا بأنفسنا، وهذا ما حدث فعلاً فيما تبقى من أيام، إلا في الليلة الأخيرة إذ أصرّ مضيفنا ثانية أن يستضيفنا في حفل الوداع . استجاب سمعان ورفاقه بانتظام لدعوتنا إياهم لتناول الطعام معنا . ولا بدّ أن أقرّ بأنني أعجبت كثيراً بذلك الشيخ الذي كان يتمتع بموهبة غير عادية في أن يقول ببساطة أشياء غير

صحيحة لأنه كان يطلق دون تردد ما يعنُّ له في ذهنه الغريب. وكان يرفع صوته بما يودُّ أن يقوله، وفي بعض الأحيان يتحدث في أذني بنبرات لا يتمكن أحد من الوصول لمداها، وكأننا أنا ومن يكون حينها معي صُمَّ كالصخور. صاح مخاطباً إيَّاي ذات مرة: «لماذا لا تصلي كما يفعل المسلمون؟»، حينها تدخل طامى مغيّراً موضوع الحديث دفعاً للحرص. لم يكن سمعان قد رأى البحر من قبل، ولم يزر حتى صنعاء، ولكنه كان يعرف الصحاري المحيطة بنجران كما يعرفها معظم الرجال هناك.

تمكنت أن أرى من فوق سلسلة تلال أبو حويل في اليوم الأول لإقامتي، المشهد المتكامل للواحة وما يحيط بها. استمدت سلسلة حويل اسمها من القلعة المتهدمة التي تحمل ذات الاسم، والتي تقع في الطرف الغربي للسلسلة، وهذه تقع على بعد ربع ميل جنوب برزان. بمحاذاة الجانب الأيمن للوادي. وكانت المدن الصغيرة الثلاث اللدام ومشرف وصباحا تقع أسفل الوادي مباشرة وتفصل بينها مسافات قصيرة. وهذه المدن تمتد بطول الحافة الجنوبية للمجرى بعيدة عن كتل النخيل التي تحف كل واحدة منها والتي كانت تقع في الطرف الآخر الأبعد. كانت تتناثر إلى الغرب من هذه المدن في اتجاه أعلى الوادي القرى الصغيرة وبساتين النخيل ورقاع الأثل الخاصة بفرعاء، وهو الجزء الغربي للواحة التي كان يبلغ طولها من أقصاها إلى أقصاها حوالي سبعة أميال باستثناء مناطق زراعة الأثل والراك، وهي مناطق غير مأهولة وخاصة بقريتي اللغف والراكة. كان يخترق الواحة مجرى سيول وادي الدواسر الذي كانت تغطي مهده الطيني في بعض المواقع غلالة رقيقة من شجيرات الرمث ومن الحشائش، بينما كانت بقية المهد عارية ومشققة بفعل الشمس. وكانت تحيط بالواحة من كل الجهات ببداء

بلا حدود، قفار رملية متلاطمة، ضاربٌ لونها إلى الحمرة وممتدة إلى الأفق الشمالي من طرف حزام النخيل، وتعدّت الصحراء منذ عهد ليس بالبعيد على مزارع وقرى صغيرة في الأنحاء فأزالتها عن الوجود مثل المعيزر التي كانت بين اللغف والمخاريم، وكذلك مجرانية وكُرارية بين الأقسام الوسطى والغربية، ويقولون إن هذه المنطقة القاحلة كانت مخفّرة قبل خمس وثلاثين أو أربعين سنة.

وامتدت نحو الغرب صحراء من الحصباء والحبيبات الرملية التي كانت تتناثر فيها روابٍ خفيفة وتلال ثم تحوّلت إلى رمال في الجانب الجنوبي الشرقي حيث امتدّ شريط عريض من هذه الرمال حتى حاجز طويق البعيد، وإلى الجانب الآخر نحو الغرب والشمال الغربي امتدّت الصحراء نفسها. وقد رأيت في الجانب البعيد في هذه الاتجاه الشمالي الغربي مقدّمة سلسلة الجبال الغربية التي كانت تعلوها كتلة الجرانيت الوعرة المسماة الريّانية.

وإن كان ما قالوه صحيحاً فإن وادي الدواسر يبدأ فوق الموقع الذي تلتقي فيه الأودية العظيمة الثلاثة، ذلك الملتقى المسمى حجلي. ويقال إن مجاري السيول العظيمة الثلاث: تليث وبيشة ورنية تنحدر من المرتفعات لتقترب من نقطة التقائها في خاصرة الريّانية آتيةً من الجنوب الغربي وغرب الجنوب الغربي والشمال الغربي على التوالي لتصبّ سيولها في حوض حجلي، ويعترضها من الجانب الشرقي حاجز من رمال ثقيلة يمتد عرضها لعشرين ميلاً أو أكثر وتغوص المياه المتجمعة في الرمال دون أن تفي بغرض أو تعود بنفع. رغم أن الحاجز الرملي لعرق سبع^(١) الواقع إلى الشمال من هذا الموقع يصدّ سيول وادي سبع، إلا أنه يبدو لي -

(١) انظر الجزء الأول. ٢٦٠. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

ولكنني لا أستطيع أن أجزم- أن هذا الحاجز الرملي ما هو إلا امتداد لحاجز وادي الدواسر الذي سبق ذكره، وأن كل هذه الحواجز الرملية ما هي إلا أذرع للصحراء الجنوبية العظيمة .

لم يحدث قط - فيما ذكره الناس- أن الماء سرى في وادي الدواسر قبل شهر رمضان الذي سبق زيارتي بعام حيث تجمعت السيول الثلاثية، أو بالأحرى من تثليث لوحده. ووفقاً لروايات الأهالي فإن السيل في مجرى تثليث كان عظيماً جداً وأنه تخطى الحاجز الرملي ليصب من خلال أسفل مهده المهجور بعرض الصحراء. حينها سمع الناس من موقع بعيد في الوادي هدير السيول المتدفعة، وبلغهم أول السيل في أطراف الواحة في المساء. صاح أحدهم داخلاً كالمجنون إلى مجلس الأمير الذي كان يحتسي القهوة مع زواره بعد صلاة المغرب: «السيل، لقد اجتاحتنا السيل» وضحك الأمير وقال ساخراً: «ناولني كوباً فارغاً، أسرع ناولني كوباً حتى أشرب من مياه السيل قبل أن يجف!» ولكن السيل أتى بالفعل، وعند ظهر اليوم التالي كان الوادي قد امتلأ بالماء فصار نهراً.

امتدّ النهر في الأيام الثلاثة الأولى ليتخطى أجسام الراكة، وبعدها ضعفت سرعة المياه، لكنها استمرت لمدة أربعة أيام أخرى، وخلف السيل وراءه بركة أسعد وجودها الرجال الذين لم يروا ماءً في ذلك المكان من قبل. استمروا يشربون من ماء السيل لمدة شهرين بعد ذلك من برك في أسفل الوادي. وسوف تظل ذكرى عام السيل في ذاكرة سكان الوادي لأزمان طويلة. لقد كان الدمار الذي لحقه السيل بوادي تثليث عظيماً، حيث فاجأ الرعاة وقطعانهم ليגרهم دون رحمة فراح ضحيته مئة وخمسون من البشر و ٤٥٠ من الإبل وعدد لا يحصى من الخراف. لم تكن هناك خسائر في الأرواح في الواحة نفسها، ولكن آباراً كثيرة أصابها الدمار

الشامل، وزالت قرية الحنابجة من الوجود. كان هناك تعويض من نوع ما لهذه الخسائر إذ حدث ارتفاع في منسوب الماء في الآبار كما تحسنت جودة الماء بالواحة. وكان الناتج الغريب لذلك السيل هو موت نبات الخروع الذي أكدوا لي أنه لم يكن معروفاً في الوادي من قبل رغم أنني لاحظت قليلاً منه في السُّلَيْل^(١)، وكان الظن أنه نما من بذور أو شتلات أتى بها السيل من الجبال. وقبل أيام قليلة من وصولنا أثارت شائعة حول قرب حدوث سيل آخر بعض القلق في الوادي، ولكن في هذه المناسبة رغم أن وادي تثليث كان يحمل سيلاً أكثر من العادة، إلا أن السيل لم يكن من القوة بحيث يدفع بالماء عبر الحاجز الرملي، ومن ناحية أخرى لم يتأثر وادي الدواسر.

لقد كنت حريصاً جداً لأن أستكشف ما وراء حدود الواحة أعلى الوادي لأصل مبتدأ الوادي في سطح الريانية إن استطعت. ولكن لم يكن هناك ما يجعل إبراهيم يستجيب لمثل طلبي هذا، وساعدت بعض القصص عن وجود عصابات نهب تقطع الطريق في أن تمنعني من تحدي قراره. ولكن في إحدى المناسبات كنت قد خرجت للتنزه في مجموعة صغيرة لم يكن إبراهيم من بين أفرادها، فانتهزت سانحة غيابه لأعلن عن رغبتني في تخطي بعض الروابي مبتعداً قليلاً عن السهل الجنوبي. وعندما بلغت أبعد هذه الروابي من ناحية الغرب وهي رابية المطيعان أصررت على أن نعود عن طريق به أجمة من حشائش الغضا في مهد سيل يجري بعيداً عن الحدود الغربية للواحة. وانزعج رفاقي لقراري ولكننا تحركنا يسبقنا كُشَّاف. وعند بلوغهم المجرى أشاروا لنا بأن نتوقف واتضح أنهم أتوا على آثار

(١) يمكن أن تكون هذه أيضاً قد انحدرت من مرتفعات طويق بواسطة سيول المجمععة. (المؤلف).

خمسة عشر من المغيرين الذين كانوا يسرون في اتجاه الواحة. وضح من حادثة الأثر أنهم مروا من هناك عند الفجر أو قبيل ذلك مما جعل احتمال ملاقاتنا لهم في طريق العودة أمراً وارداً، ولكن بعد خطوات قليلة زالت مخاوفنا عندما رأينا آثاراً أكثر حادثة تنبئ بأنهم عادوا جميعاً أدراجهم في طريق العودة نحو الغرب. تقدّم الآن طويرش وثلاثة آخرون مترجلين بحذر نحو قمة التلال الرملية في الجانب الأبعد للمجرى بغرض استكشاف المكان، بينما بقينا مختبئين في انتظار تقريرهم. وفور بلوغهم القمة لاحظوا عن قرب ثلاثة يستطيعون إبلهم، لاشك أنهم جزء من عصابة النهب، ووصلنا لاقتناع بأن البقية لا بد وأنهم يخيمون في ثنايا التلال. كان ذلك كافياً لنا إنهم خمسة عشر كلهم راكبون بينما كنا أربعة عشر على ثمانية من الإبل.

قفلنا أدراجنا عائدين للديار بأسرع ما نستطيع بينما تأخر طويرش وزملاؤه ليطلقوا بعض القذائف النارية في اتجاه العدو، ثم أسرعوا للحاق بنا وهم يشدون أناشيد حماسية وهم يحمدون الله أن بقية العصابة لم تكن من القرب بحيث يتمكن أفرادها من ملاحقتنا، إذن لحدث ما لا تحمد عقباه. بلغنا مأمناً بوصولنا إلى مزارع نخيل فرعاً وضعت تلك الحادثة حداً لأمانني في إنجاز مشروع طموح للاستكشاف في المنطقة. إن العصابات التي تزرع الصحراء بين الوادي ووحدات الأراضي المرتفعة أي بيشة وتثليث ورنية كانوا في الغالب -وفقاً لما قالوه- من أقسام رزق والسلوم من قبيلة يام، وكانوا من الشجاعة بحيث يأتون إلى الواحة تحت جنح الليل ليسحبوا الماء لأنفسهم ولحيواناتهم ثم يعودون من حيث أتوا قبل بزوغ الفجر.

كنا نظنّ أنّ وصولي لبرزان، وهو أمرٌ قد وقع، سيمنع استمرار الاضطرابات التي سبقت وصولنا. ولكن هذا الظن أوضح جهلنا بطبيعة أهل اللدام، حيث كانت هناك ردّة فعل عنيفة ضد زعمائهم في أول ليلة بعد وصولنا احتجاجاً على السماح بدخول كافر إلى أرضهم والبقاء بين ظهرانيهم.

وفي صباح اليوم التالي بينما كنت أُمّني النفس بنزهة وأستعدّ للخروج للتجول في بساتين النخيل الموجودة في الجوار أتى ابن جلهم واقترح عليّ أن أنظر إلى المشهد كاملاً من أعلى أحد الأبراج بالمبنى، فوافقت على الفور وتبعته. أصابني شيء من الاشمئزاز عندما ارتقيت الدرج لأجد إبراهيم هناك يحييني، ولكنني وجدت لدهشتي البالغة أنه لم يكن وحيداً هناك في الأعلى، بل كان في معيّة الأمير نفسه. وحياني الأخير بدماثة وعذوبة، وطفق في غير ما حماس يشير موضعاً لي القرى المختلفة والمعالم البارزة في المنطقة. وبعد قليل انسحب إبراهيم والتمس مني الأمير أن أجلس لأستمع لما يودّ أن يقوله لي من أمرٍ هام. لقد تلقى إنذاراً بأن أهل اللدام الذين ندموا على التزامهم بأوامره أعلن فريق منهم في إصلاح الأمر بطريقتهم الخاصة. ورغم أن الأمير أعلن لهم جميعاً بأن أي محاولة للنيل مني ستبعتها عواقب وخيمة على المدينة كلها، إلّا أنه يشعر بقلق تجاه هذا التغيير في توجهات أهلها. لذلك سألني بإلحاح أن أتخلّى ليوم واحد فقط عن أيّ مشروع لتفقد المنطقة، ووعدني بأن المياه سرعان ما تعود إلى مجاريها عندما يعتاد أهل المدينة على وجودي بينهم.

كان عليّ ألاّ أغادر القلعة أثناء النهار، ولكن كان لي أن أذهب حيث أريد في داخل القصر إضافة للبرج الذي كان تحت تصرفي إن احتجت لاستخدامه. وقدم لي الأمير هذا الطلب بنوايا حسنة بلا شك ولأسباب منطقية، لذا لم أتردّد في

الاستجابة له ، وقضيت يومي بين أسوار القلعة التي بقيت أبوابها مغلقة ، والحراس عليها من الداخل والخارج طوال النهار . ولم يكن يسمح بدخول القلعة إلا لمن يؤذن لهم من المأمونين . وكنت أضطر للخروج من القلعة لبعض الوقت ، بيد أنني لم أكن أشعر بالضيق من حرّاسي الملازمين الذين كانت التعليمات لديهم ألا أفارق أعينهم . وزاد الجُرحُ عمقاً التعليمات التي صدرت لرفاقي بالألا يحضروا صلاة الجمعة في وسط المدينة ، لذا ذهبوا لمسجد مشرف الذي كان قريباً بينما بقيت على البرج العالي أرقب نساء المدينة وهنّ يسحبن الماء من البئر القريبة من حائط القلعة ، وأتبع بنظري قطعان الأغنام تساق في الغسق لحلبها ابتداء من اليوم التالي .

كنت في حلّ من حظر التجوال بعد أن زالت المشكلة في اللدام بورود رسالة من شيوخ المدينة الذين عبّروا فيها عن اعتذارهم لما فعلوه سابقاً ، وطلبوا منا أن نرسل لهم وفداً للاحتفال - بشرب القهوة - بإعلان السلام . وتمّ تفسير الدعوة بطريقة صحيحة إذ لم أكن مقصوداً بالدعوة ، لذا قاد إبراهيم في اليوم التالي « ٢٠ يونيو (حزيران) » وفداً مختاراً لمنزل ابن ضرمان ، أحد كبار التجار بالمدينة ، وبعد كثير من الجدل أثناء شرب القهوة تمّ التوصل لاتفاق رسمي ، وبذا أسدل الستار على هذه القصة .

تقع مدينة اللدام ، عاصمة إقليم الوادي على منحدر عارٍ لجانب المجرى ، في منتصف الطريق بين مهده الحقيقي وسلسلة تلال أبو حويل . شكل المدينة مستطيل تقريباً وطولها ٥٠٠ ياردة وعرضها أقل قليلاً ، وتعلو فيها رابية خفيضة يوجد على قممتها أجمل المنازل . وكان يحيط بها في زمان مضى حائط متوسط الارتفاع ، وهو الآن مهديم في معظم أجزائه ، وفي غياب البوابات نستخدم الفتحات المتعددة في

== الجزء الثاني ==

هذا الحائط للدخول للمدينة. وكان أجمل المباني مسكن شبيه بالقلعة ويُسمى قصر حسين، وكان صاحبه أحد الزعماء المحليين. ولم يكن بالمدينة سوق منتظم ولكن كان هناك اثنا عشر متجراً أو أكثر متناثرة هنا وهناك تخدم مجتمعاً قوامه حوالي ٣٠٠٠ نسمة من فخذ الرجبان، وهو أحد أقوى عشائر الدواسر. كانت منازل المدينة كغيرها من منازل قرى الوادي المختلفة من الآجر^(١)، وكانت حدائق النخيل جميلة معتنى بها كغيرها من حدائق المنطقة.

مدينة مشرف هي المنافس الرئيس لمدينة اللدام، وتسمى أيضاً الخماسين، وهو اسم قسم من أقسام الوداعين الذي يكون الجزء الأكبر من سكانها البالغ عددهم حوالي ١٥٠٠ نسمة. يحتل برزان جزءاً من المساحة بين المدينتين وتحتل المقابر الجزء الأكبر منها. أما مشرف نفسها فهي المركز التجاري الرئيس للمنطقة، ولها سوق منتظم لا يختلف كثيراً عن سوق ليلي حيث اصطف ثلاثون متجراً أو نحوها حول ميدان صغير بالقرب من البوابة الغربية. أما سور المدينة فهو خير حالاً من سور اللدام ولكنه متهدم نوعاً ما في الجانب الشرقي الذي توجد به بوابة. ولا تحتوي المدينة على مبانٍ ذات جمال معماري، وشوارعها ضيقة ومتعرجة وكثير منها - لاسيما في الركن الشمالي الشرقي - مهدمة. ولم ألتق شخصياً بأمير الخماسين - محمد بن سلطان - الذي تميّز بأن اتخذ منذ البداية موقفاً في صالحنا، وتبع ذلك إمداده لنا بالعلف واللبن.

(١) كان الطوب المستخدم في وسط الواحة ذا لون خلاب مائل إلى الحمرة، بينما كان في المواقع الأخرى ذا لون رمادي. (المؤلف).

مدينة صباحا التي يسكنها فخذ الولاين المستقل تبعد مسافة قصيرة إلى الشمال الغربي من مشرف، اتخذت موقفاً سلبياً تجاه وجودنا وبذا أعفت نفسها من مسؤولية إمدادنا باحتياجاتنا. وكأختها يحيط ببعض أجزائها سور رغم أنها أصغر المدن الثلاث ولا يسكنها أكثر من ١٠٠٠ نسمة. وتقع بساتين نخيلها في الجانب الآخر من المنخفض وتعرف باسم العسيلي، وهي جدّ كثيفة ويفصلها عن بساتين نخيل مشرف بئر يسمونها الفريخ. يتكوّن فخذ الولاين من فخذين؛ أحدهما السعد وهو تحت إمرة محمد بن درعان، بينما يقود الفخذ الآخر -وهو التميم- مبارك بن علي.

ويُعرف الجزء الغربي من الواحة باسم الفرعة وهو صقع فسيح من بساتين نخيل تتخللها غيصات من الأثل وحقول للحبوب. كانت المدينة الرئيسة بهذا الجزء مجموعة من القرى الصغيرة تسمى جماعياً الحمراء ومعظمها خرائب. وتقع في الغالب على الجانب الأيمن للوادي. وكان لكل قرية بالطبع اسمها الخاص: الحوية وهي خرائب، وإلى الشمال منها آل عويمر ويسكنها نحو من ٣٠٠ نسمة من فخذ تحمل هي اسمه، ثمّ الحامد وهي أيضاً خرائب، ثمّ المعنيّ ويسكنها فخذ يحمل نفس الاسم، عددهم حوالي ٢٠٠ نسمة. إضافة لهذا كانت هناك ثلاث قرى أخرى بين بساتين النخيل: آل ناهش والجلال^(١)، وهما متجاورتان يسكن الأولى ٢٠٠ نسمة والثانية ٥٠ نسمة، والقرية الثالثة السراجي ويسكنها ١٠٠ نسمة من الحميضان وهو فخذ من آل عويمر.

(١) هو فخذ من آل عويمر. كان أمير آل ناهش يدعى عامر بن طامي، وأمير السراجي معوفى بن عبيد.
(المؤلف).

ولابدّ أن نأخذ تقديرات عدد السكان بتحفظ إذا أخذنا في الحسبان أن بلاداً مثل الجزيرة العربية لم تقتنع بعد بجدوى التعداد. وهذا أمرٌ طبيعي، إذ أن السؤال عن عدد أفراد قبيلة ما لا يعني سوى أحد الشريين وكلاهما يفزع الحياة الآمنة، أولهما أنّ عدواً يودّ الانقضااض عليهم بعد معرفة قوتهم، وثانيهما أنّ هناك ضريبة ما ستجمع، هذا إذا استبعدنا مقاومتهم الطبيعية لأخذ أعداد النساء والأطفال، ومحاولاتهم التي يمكن فهمها للمبالغة في إظهار قوتهم العسكرية.

لقد اقترح داوتي خصم ٩٠٪ من تقديرات الأهالي وبعدها يصبح الرقم قريباً من الصواب. لذا يمكن تصوّر صعوبة الوصول لتقديرات معقولة. ورغم هذا رأيت من الضروري أن أقوم بهذه التقديرات - على مافيها من احتمالات - كلما سنحت لي الفرصة، وإنّي لآمل بفضل كبحي لجماح خيالي أن أكون قد قاربت الحقيقة بقدرٍ معقول، وإن كان هناك فرق فهو للأقل وليس للأكثر. ومهما كان الأمر فإن تعداد السكان بواحة الوادي - باستثناء فخذ المخاريم وكلهم من البدو- فهو وفقاً لتقديري يقارب ٩٠٠٠ نسمة، منهم حوالي ٢٠٠٠ ممن يقع في خانة العبيد، وبقية العدد ٧٠٠٠ يحملون دم الدواسر. ويمكن مضاعفة هذا العدد إذا أخذنا في الحسبان الجزء البدوي في القبيلة وهم على أقل تقدير يساؤون في العدد الجزء المقيم من أهليهم. ولهذا العدد الكلي ١٤,٠٠٠ لابد أن نضيف المخاريم وكلهم من البدو كما أسلفنا. لذا لن نكون مخطئين في اعتقادي إن قدرنا العدد الكلي الذي يعتمد في حياته على الوادي لـ ١٦,٠٠٠ نسمة من أهل القبائل و ٢٠٠٠ من العبيد، أي إنّ العدد الكلي هو ١٨,٠٠٠ .

إنّ تاريخ الوادي وهويّة سكانه السابقين، والخطوات التي مرّ بها الوادي ليؤول إلى سكانه الحاليين أمرٌ غامض. ولكن ليس هناك كثير شك في أن الدواسر

نرحوا في الأصل من جنوب الجزيرة العربية، لذا فإنّ زايد المملطوب وهو الجدّ الذي تنتمي إليه كل الأفخاذ الموجودة الآن من القبيلة، والذي عاش قبل عدد من الأجيال لا نعرف عددها، كان قد حصل على إذن من حكام بلاده بالهجرة، وجاء في معيّة عدد قليل من أتباعه للوادي ليعيش بين من كانوا يملكون الوادي حينها. وبمرور الأيام تزايد أبناء المملطوب للحد الذي قاموا فيه، ليس فقط بالتغلب على مضيفيهم، بل قاموا أيضاً بالهجرة شمالاً نحو نجد ليملكوا أنفسهم أيضاً في السُّلَّيل والأفلاج والخرج، حيث نوهتُ من قبل لوجود مساكنهم بها. وبعد ذلك انتشروا أكثر ودفعوا بحدودهم إلى الأمام حتى صار لهم وجود ظاهر حتى في الأحساء، بعيداً هناك في الشمال الشرقي. وهم يسرون في الجنوب مع آل مرة رغم أنهم دفعوهم نحو فيافي الربع الخالي المهجورة، ويسرون في الشمال مع قحطان الذين كانوا يشاركونهم في الرغبة للتقدّم نحو قلب نجد ولكنهم لم يسمحوا لهم بإبعادهم عن مواقع سيطرتهم.

وكانوا يسرون أيضاً مع بقايا سبيع والسهول الذين وجدوا المأوى في شرق نجد. من كان المضيفون الأوائل الذين استغلّ الدواسر كرمهم حتى نزعوا منهم حقاً اكتسبوه بالمولد؟ لا يمكننا أن نجزم، ولكنني على الأقل أرى أنه من المسموح أن نظنّ أن بقاياهم من الأحياء يمكن البحث عنهم في المجموعة القبلية المعروفة باسم آبات الدواسر، وهي مجموعة ذكرتها من قبل عند الحديث عن تمر وكعدة ورويسة. وعلمتُ أنّ لآبات الدواسر أربعة فروع، أولها العمور الذين يسكنون تمر وكبكاية وما تبقى من رويسة، والفرع الثاني الحقبان الذين يسكنون كمدة ولهم وجود في الوادي نفسه في بقاع متفرقة، والفرع الثالث مشاوية والرابع خيلات وكلاهما تمّ

طرده من أرض آبائهم، ويوجدون الآن في الأحساء فقط. لقد انشق بيت زايد المطلوب منذ عهد البدايات ليكونَ فرعين: الصهيب^(١) والذي تتكون منه مجموعات آل حسن والمساعرة والشرافا والرجبان والمخاريم، والفرع الثاني السالم، والذي تقسم لاحقاً لفرعين أولهما الزايد ويمثله الآن أقسام العمير والمعنى والناهش من الفرعة، والفرع الثاني الغانم الذي تنتمي إليه أقسام الوداعين والولامين. وهكذا يبدو هيكل قبيلة الدواسر التي يؤهلها أعداد أفرادها وتوزيعها الإقليمي لأن تعد من التنظيمات القبلية المسيطرة بجزيرة العرب في هذا الزمن المعاصر، وتُشاركهم هذه السيطرة قحطان وعتيبة وحرب ومطير وشمر وعنزة، ملوك الصحراء الذين ينبئ عن نفوذهم بلادهم غير المحدودة التي تقع خارج إطارها القبلي المتعارف عليه، والتي استمرت عبر القرون لتشكّل جزيرة العرب اليوم.

لقد ذكرت من قبل شيئاً عن إسهامات هذه القبيلة في اصطیاد اللؤلؤ من الخليج العربي، ويكفي هنا أن أشير إلى أنه توجد مستوطنة دوسرية في جزيرة البحرين، وأن أذكر أولئك الذين شاركوا في بدايات حملة بلاد ما بين النهرين في معركة سنية التي وقعت في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٤م في وسط بساتين النخيل الكثيفة التابعة للدواسر في شط العرب. كما يُقال أنّ امتدادات القبيلة وصلت إلى بقاع متفرقة في الإقليم الساحلي لفارس، وقد يكون صحيحاً أنّ انتشار المستعمرات الدوسرية قد أسهمت لحدّ كبير في انتشار القصور الذي يسود الآن من أنّ القبيلة لا تعد بدوية في الوقت الراهن، وهو المسجّل في الكتيب الرسمي الذي تمّت الإشارة إليه من قبل عدة مرات. إنّ الدواسر بدو لحدّ كبير في

(١) الأقسام التي تنتمي لهذا الفرع تسمّى في مجموعها الصهبة. (المؤلف).

== قلب الجزيرة العربية ==

إطار منطقتهم القبلية، ولكن امتداداتهم العظيمة خارج تلك الحدود ماهي إلا تأكيد للدور الكبير الذي أدوه في تاريخ الجزيرة العربية على امتداد عهد طويل، وهو الدور الذي ضاعت بداياته في ضباب التاريخ، مثل الاسم الأصلي للواحة التي استوطنوها وأطلقوا عليها اسم وادي الدواسر.

إن المنتجات الزراعية للوادي مشابهة في كل نواحيها للمنتجات في السُّلَيْل والواحات الاستيطانية الأخرى الموجودة في جنوب نجد. الماء وافر في كثير من الآبار التي يبلغ مدى الماء فيها من أربع إلى خمس قامات. بالطبع لقد كان الماء أبعد منالاً من هذا بكثير قبل السيل. ويتم سحب الماء من الآبار بواسطة الإبل والحمير. وتشكّل التمور والحبوب الغذاء الرئيس، وهناك زراعة مساندة لها من الخضراوات والفواكه المعروفة. بيد أن مستوى المعيشة جد منخفض، وتعد اللحوم والأرز والشاي من الرفاهيات وقلماً يستخدمونها، بينما يعتمدون على الخبز واللبن وعصيدة القمح والتمور والقهوة وقشر البن، والاثنين الأخيرين يأتيان من اليمن. تفرض الخزينة بالرياض ضريبة أرض بنسبة ٥٪ عيناً من جملة المنتج من التمور والحبوب، بينما لا تخضع المحاصيل المساندة للضريبة بل تعد ملكاً للمزارع المستأجر عندما يقوم المزارعون بفلاحة الأرض إنابةً عن أصحابها. ويتلقى أصحاب الأرض هؤلاء بصفة منتظمة هدايا من الخضراوات والفاكهة إضافة للإيجار ولما يستحقونه من نصف أو ثلثي إنتاج التمور والحبوب.

وكان ابن جلهم قد قام قبل زيارتنا بجمع هذه الضريبة من الوادي وكانت حصيلته ٤٦,٠٠٠ وزنة من التمر و ١٤,٠٠٠ جوال من الحبوب (بما في ذلك كمدة). وبلغت الحصيلة في السليل ١٨,٠٠٠ وزنة، و ٦٠٠٠ جوال (بما في ذلك قرية تمرة)، بينما تمّ تحصيل ما لا يقل عن ٦٣,٠٠٠ وزنة في العام السابق

== الجزء الثاني ==

من السيح الواقعة في الأفلاج بمفردها، وذلك على اعتبار أنّ الضريبة تكون بنسبة ١٠٪ عندما يكون الرّي انسياياً، وبنسبة ٥٪ عندما تكون السقيا من الآبار. ويمكننا أن نستنتج من هذه الأرقام أنّ جملة الإنتاج بقرى وادي الدواسر بلغت ١,٣٠٠,٠٠٠ وزنة من التمور، و ٤٠٠,٠٠٠ جوال من الحبوب. وتباع التمور في وقت الحصاد للبدو بسعر ١٥ وزنة للدولار، بينما يكون متوسط سعر البيع في الأوقات الأخرى في المدى بين ٧-٨ وزنات للدولار، و ٣,٥ إلى ٤ جوالات للدولار في حالة الحبوب. إن حسبنا القيمة المالية لما جمع من ضرائب في العام الماضي بالوادي نجد أنها بلغت ١٣,٠٠٠ دولار وهو ما يزيد قليلاً على ٢,٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو لا يُعدّ مساهمة ذات شأن لخزينة الحكومة المركزية التي جمعت في العام نفسه مبلغاً مساوياً من ضريبة الإبل من كل أقسام البدو التابعة للقبيلة^(١). زكاة الأنعام هذه مقدارها خروف أو رأس من الماعز عن كلّ خمسة من الإبل، وتؤخذ هذه الضريبة نقداً على اعتبار أنّ رأس الماعز أو الخروف يساوي ٥ دولارات. يعد موقع سقيا المقرن المركز المعتمد للتقدير السنوي لأعداد إبل الدواسر، وهو ما قام به في تلك السنة ابن جلهم. وبعد سداد كافة المنصرفات كان صافي المدفوعات في حدود ١٥,٠٠٠ دولار عن عدد من الإبل في حدود ٢٠,٠٠٠ رأس لكل القبيلة.

باستثناء اليوم الوحيد الذي قضيته سجيناً في القلعة، مرّت فترة إقامتي بطريقة مرضية بين رحلات الاستكشاف الطويلة والقصيرة داخل وحول الواحة التي رافقني فيها عدد من أصحابي الأشداء المختارين، إضافة لاثنين أو ثلاثة من جماعة

(١) أنا أعتقد أنّ المجموعات التي شملها هذا التقدير هي مجموعات الأفلاج والوادي، بينما لا تشمل هذه الضريبة ما جُمع من بدو الخرج والأجزاء الشرقية. (المؤلف).

الأمير. وكان أحد هؤلاء واسمه سعد قد قام من قبل بعدد من الرحلات في أودية تليث وبيشة ورنية بصفة أساسية في مهام جمع الزكاة. ولم أتمكن من التحقق من العمق الذي يصل إليه نفوذ ابن سعود في أطراف الوادي ولكن بفضل كثير من الرسومات والتخطيط على الرمال من مرافقي وبحساب السير والتوقيفات مثل «المقيل» و «المراح»، وهي وقفات منتصف النهار والمساء على التوالي تمكنت من جمع كثير من المعلومات عن الأقاليم التي لم يكن قد تمّ سبر غورها بعد. علمت عن قرى مناطقهم وعن أوديتهم وجبالهم، وعن الطرق التي ينبغي اتباعها عند الوصول إليها من الشرق، وعن مواقعها بالنسبة لبعضها البعض. وكان أحد رجال الأمير الآخرين رجلاً ذا شخصية جدّ مختلفة، كان اسمه معضة، ولم يكن مُطيعاً، ونشأ لديه كرهٌ خاص لمترك. ففي طريق عودتنا من محاولةٍ لاستكشاف أعلى الوادي طفحت العداوة المتبادلة واستعرت ولم يخفيهاها.

كان يوماً شديداً الحرارة ولم يكن رفاقي يتوقعون أن يطول أمد تجوالنا فغفل رفاقي عن أن يحملوا معهم ماءً، وكان كل ما لدينا منه هو القارورة التي أحملها، والتي وزعت ما بها من ماء على الآخرين لأحفزهم لمواصلة السير للأهداف التي كنت أريد الوصول إليها. ولكن تلك الكمية ما كانت لتروي غلّة ثلاثة عشر رجلاً صادياً في قيظ منتصف النهار، مما أدّى لحِدّة المزاج لديهم. وعند مرورنا بقرى الحمر تجمّع عدد قليل من أهل القرى يشاهدون مرورنا بإزائهم. عندها خطر لمعضة أن يُسرّع، بينما رأى مترك -وهو صائب في حكمه- أنّ السرعة قد تفسّر بطريقة خاطئة لدى النُظّارة، لذا طلب من رفيقه أن يُقيّم ردّة الفعل المحتملة وطلب منه ألا يُسرّع. عندها استدار معضة نحوه وأسمعه كلمات قاسية بطريقة حادة وبادله مترك مثلها قبل أن أفطن لخطورة ما يجري. كان الاثنان يدوران حول بعضهما

البعض يرفع كل منهما عصا مطيته وكلّ منهما يقذف في ذم صاحبه . وخوفاً من أن يستغل النظارة هذا الموقف تقدمت لأتدخل ولكن قبل أن أصل إليهم كان معضة قد سحب مسدسه ، وقام مترك استعداداً للمعركة بسحب بندقيته من خلفية السرج . وجدت نفسي الآن بين نارين فقامت بالصياح على الرجلين بكل ما استطعت استدعائه من اللغة ، ولكن استمرت التحركات والمناوشات لبعض الوقت دون اكتراث لأمرى حتى انفضت الأزمة كما يحدث في كل مناوشات العرب ، وخلد الرجلان إلى صمت يتخلله بعض السباب من أحدهما للآخر ، ويصبح فيه مترك : «العبد الأسود» . وعند بلوغنا القلعة وجهت إبراهيم بأن ينزع سلاح كليهما وأن يحبسهما دون طعام أو ماء حتى يعتذرا عن وقاحتهما ، وهكذا بقيا حتى حلول المساء ، ورقّ قلبي لنداءات طامى وابن جلهم والآخرين فوافقت على إطلاق سراحهما ولكني قمت بمصادرة ذلول كان مترك قد اشتراها بثمانين دولاراً من هبة وهبتها إياه في يوم سابق ، وأفهمت معضة أنّه قد أضاع الهدية التي كانت ستكون له لولا فعلته .

ألقت هذه الحادثة المشؤومة بظلال سوداء على مجموعتنا ، ولكن يا ويلتاه ، كان الأسوأ في انتظاري قبل حلول الظلام . كنت في طريقنا من تمرة إلى كمدة قد لاحظت غياب جابر المرّي الذي كنت أحرص على صحبته بدافعٍ مستقبلّي ، إذ كنت آمل أن أتمكن بصحبته يوماً ما من قطع الربع الخالي . وعند سؤاله عنه أجابني إبراهيم باقتضاب بأنه بعث به أمامننا ليعدّ الأعلاف للمطايا قبل وصولنا للوادي . وأوضحت له حينها أنني أودّ أن يكون الرجل ملازماً لي طوال الوقت . وفي هذا الصباح بالذات لاحظت غيابه مجدداً من المجموعة المصاحبة لي . وساءني جداً أن أسمع من مترك تعليلاً لم أثق بصحّته وهو أنّه قد أرسل عائداً

ببعض الرسائل، بيد أنني لم أعلق منتظراً الفرصة المناسبة للتحقق من جلية الأمر، وحدث هذا عندما تجمعنا كلنا بما في ذلك سمعان ورفاقه بعد مغيب الشمس في قاعة القهوة المقامة في الهواء الطلق. سألت حينها طامي الذي يجلس بجواري: «أين جابر؟» فأجاب بطريقة ملتوية عبّرت عن عدم ارتياحه، موضحاً أنه كان من الضروري إرساله ببعض الرسائل إلى الرياض. وسألت ملتفتاً إلى إبراهيم: «ما هذا الذي أسمع؟ أذهب حقاً؟ ألم أقل لك أنني أودّ أن يكون دوماً إلى جانبي؟ لماذا فعلت هذا؟» لقد قام بهذا متعمداً ليُبعد رجلاً كان يشعر بالغيرة تجاهه، وفعله أيضاً ليغيظني. أجاب: «إنني أعلم ما أفعل». وكانت إجابتي: «لا بأس، افعل ما بدا لك دائماً لكنني لن أبقى معك». ونهضت تاركاً الجلسة. وبعد حوالي الساعة، عندما كنت جالساً بمفردي أمام غرفتي جاء طويرش ليعلمني أن العشاء قد أُعدّ فأجبت: «لا أريد عشاءً مع صحبة كهذه، ولكن يا طويرش هل تريد مئة دولار؟» فأجاب بنعم. «إذن اركب دون تأخير في أثر جابر وأت به عائداً وسأعطيك مئة دولار عند عودتك» حينها سقط فكّه، لقد كان يعلم أنه لا يجروء على فعل ذلك، ثم ذهب عني. جاء بعدها طامي ليحثني على تناول العشاء الذي كاد أن يبرد، وتبعه ابن جلهم لذات الغرض، ولكن دون جدوى.

تركوني بمفردي دون عشاء يملؤني الحنق على ذلك الذي خان الثقة. علمت فيما بعد أن جابراً وعبيداً تمّ إيقاظهم في جنح الليل مع أوامر للاستعداد للركوب والتحرك دون تأخير لأن الخطابات نفس الخطابات التي سلمتها بيدي لإبراهيم قبل أن أخلد للنوم دون أن أشكّ فيما يمكنه أن يفعل بها، هكذا قال لهما إنّ الخطابات كانت عاجلة ولا تحتل التأخير، ولا بد أن تصل ليد ابن سعود في أقرب وقت.

احتجَّ جابر ولكنه لم يكن ليجرؤ على عصيان الأوامر. لذا تحرك الرجلان قبل حلول الفجر، وافتقدت في اليوم التالي ضحكاته المجلجلة وتصرفاته الهمجية، ومَرَّتْ شهور قبل أن ألتقي به مجدداً. ويا حسرتاه لقد توفيَّ الآن، صرخته الأفلونزا^(١)، ولن ترى آمالنا التي رسمناها سوياً النور إلى الأبد.

كنا قد أمضينا يومنا الخامس في الوادي في انتظار أمتعتي القادمة من الرياض. إذ كنت قد صوّرت آخر فيلم لي في اللدام، وفشل رشيد في أن يحصل لي على تبغ. وفي صباح اليوم التالي وبينما كنت أتناول الشاي وأنا أتساءل عما ستفرزه مشاكل اليوم السابق، إذا بإبراهيم يدخل عليّ قائلاً: «أبشرك بوصول رسلنا وأغراضك». وأجبته: «الحمد لله» متظاهراً بأن الأمر لا يهمني كثيراً بينما لاح أمام ناظري مشهد الأفلام والتبغ اللذين طال انتظاري لهما. على كلّ حال لن يتذوق إبراهيم من تبغي شيئاً، وغشيني ارتياح وأنا أرى نظرة الندم في عيني متمرّد الأمس. وبعد قليل وصلت الإبل وأحضرت أمتعتي وتجمّع حولي إبراهيم والآخرين ولكنني تابعت قراءتي دون اكتراث حتى انسحبوا واحداً إثر آخر. وعندما خلا منهم المكان انقضضت على المتاع بصبر نافذ. لقد احتوى على كثير من الخطابات والصحف وزجاجتين من الكحول الميثيلية، ولكن لم يكن هناك أثر للتبغ، وأسوأ من ذلك لم تكن هناك أفلام.

كدت أبكي من الحنق والغيط، «لقد كان فالاً سيئاً أن يبشرني بوصول أمتعتي رجل سيء». هكذا قلت لطامي بعد ذلك عندما جاء ليرى ماذا كنت أفعل، ولكن لا بأس سيحلّ غضب الله على إبراهيم وسرى ماذا يحمل الغد. لا بد أن

(١) تسمى الحمى الإسبانية، وقد كانت سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م وتسمى في نجد سنة الرحمة لكثرة من مات فيها. (المراجعون).

السيد جوب في كلّ ما عاناه في محاكماته لم يبلغ ما عانيته أنا في ذلك اليوم. وعندما جلست وحيداً أسترجع ثلاث مئة ميل طوبتها دون أن ترى عيني أورياً، وأنني الآن بلا أفلام تصوير. حزن طامي لذلك كثيراً، لقد رأى في وصول أمتعتي فرصةً لإصلاح ذات البين بيني وبين إبراهيم، ولكنّ آماله ذهبت أدراج الرياح في ذلك اليوم. كما تناولت فطوري وعشائي بمفردي.

لم تعد إبلنا من المرعى إلّا متأخرةً في صباح اليوم التالي لذا تأخر سفرنا حتى بعد الظهر لنقضي ليلتنا الأولى في الراكّة. أرسلت طامي في الليلة السابقة بعباءة جيدة لعبدالله بن معمر هدية صغيرة أعبر بها عن امتناني لكرم ضيافته لنا. ولكنه -ولابد أن أحییّه لهذا- رفض قبول الهدية قائلاً إنه لا يحتاج لشيء سوى ما يمكن أن يهبه له الله ثم ابن سعود، وتوسل أن أتجاوز مسامحاً إياه على ما قد يبدو أنه عدم تهذيب. تركت هذه الحادثة، وأضيف إليها الطريقة النبيلة التي أظهر لي بها - وهو يقوم بضيافتي استجابةً لأمر سيّده - أن استضافة كافر أمر مخالف لما يمليه عليه ضميره. ترك كلّ هذا أثراً عظيماً في نفسي لصالح الرجل. وعندما تمّت الاستعدادات للرحيل ذهبت لأودّعه، واحترمت مشاعره بأن جعلت بقائي معه جد قصير، وقلت له: «أنا ممتن لك جزاك الله خيراً»، فأجاب: «أبلغ احترامي لعبدالعزیز» بعدها ذهبت لأمتطي ناقتي.

قبل أسبوع بلغنا أسوار اللدام ونحن نسير بتؤدة مع الشعور بإقبالنا على أزمة، ولكنّا بعد ذلك كنا نتجوّل بحرية في الواحة، وتلقى رفاقي دعوات للاستضافة في المدينة مرتين، لم نعد محط الأنظار الفضولية، وكان من شهد رحيلنا بضع نسوة يتطلّعن من فوق أسطح المنازل، وكان طريقنا يقودنا بطول السور الشمالي المتهدّم

== الجزء الثاني ==

للمدينة وعبر أحد شوارعها الطرفية. بعد ذلك واصلنا المسير بطول الجانب الأيمن للوادي. وتجاوزنا مقابل ونعيمة حيث تحول بعض رفاقي عن الطريق لوداع أميرها المضيف. ثم سرنا بوسط قرية الشرافا، ومن ثم بطول مهد الوادي متجاوزين أشجار الأثل بقليل التي دلفنا منها إلى شجيرات الراكة التي حملت رائحتها المنفّرة نحونا نسمة خفيفة قبل أن نصل إليها، وننوخ في ظلالها الرواحل لوقت طويل. يُقال إن شجيرة الأراك يختص بها جنوب الجزيرة العربية وعمان، ولكن هناك عينات قليلة منها في العقير وإقليم الأحساء وكذلك في الخرج. أغصانها الخضراء جد مطلوبة للسواك، يستاك بها الناس أو يعضغونها بين الأسنان بينما يُمضغ لحي الساق والأغصان الأكثر صلابة، ولطعمها لسعة وتستخدم مطهراً للأنفاس.

كان الطقس بالوادي في هذه الأيام معتدلاً لحدّ كبير، وكانت الرياح شمالية وشمالية غربية مع تغيير بين الفينة والأخرى لنسمات شرقية وجنوبية، وكانت تهبّ في حالات نادرة بقوة حتى تثير الرمال. كان التأرجح في درجات حرارة النهار أقلّ حدةً منه في السُّلَيْل. ورغم أن مقياس الحرارة سجل في أحد الأيام ١٠٧,٦ درجة فهرنهايت؛ إلاّ أنّه قلّما قرأ أكثر من ١٠٢، وفي يومين لم تتجاوز الدرجة القصوى ٩٩. ومن ناحية أخرى لم تكن الدرجة الدنيا تقلّ عن ٧٧ فهرنهايت. كانت الرياح الشمالية مسببةً لأكثر التأرجح في درجات الحرارة إذ كانت مسؤولة عن أدنى الدرجات عند الفجر وعن أعلاها بعد الظهر، بينما كانت الرياح الجنوبية أكثر اعتدالاً في الدرجات القصوى والدنيا على حدّ سواء. لقد أكدوا لي أنّ الجنوب قد تجاوز الآن فصل الصيف، وأنه من الآن فصاعداً ستراجع درجات الحرارة. إن كان ذلك التأكيد حقيقياً فلا بدّ أن نهنيّ جنوب نجد على ظروفه المناخية التي ساهم في اعتدالها ارتفاعها وجفافها وقربها من منطقة مسار الرياح الجنوبية الغربية (المنسون) في شبه الجزيرة العربية.

لم نُفَاجَأَ عند بلوغنا الراكَة عندما حيَّانا رجل جاء على قدميه من تمرَة يعلن أنَّ رسولاً آخر قد وصل من الرياض حاملاً رسائل وبعض الأمتعة، وأنَّ ذلك الرسول قد توقف قليلاً لإراحة مطيته وسيكون بيننا في اليوم التالي. كانت الأنباء أجمل من أن تُصدَّق، ولم أضع أنا شخصياً ثقةً في صحَّتها حيث أنهكتني الآمال المحطمة. لم أكن قد تحدثت مع إبراهيم منذ صباح اليوم السابق، وكانت تخيم على علاقتنا جميعاً سحابة مظلمة، لكن اقتحم عليَّ خيمتي أثناء المساء وفد همجي برئاسة طامي وابن جلهم ومترك الذين التمسوا مني الصفع عن إبراهيم. في حقيقة الأمر كانت احتمالات زيارتي للحوطة والحريق في طريق العودة - رغم ممانعة ابن سعود في فعل ذلك - كانت تعتمد بالكامل على النوايا الحسنة لإبراهيم، وبما أنَّ سفر جابر صار أمراً نافذاً لا يُعالج، فلم أكن في أعماقي مستاءً عندما رأيت الجميع قلقين من أجل إعادة العلاقات الطيبة بين المجموعة. وبعد جدال طويل تنازلت وتناولت الطعام مع المجموعة مجدداً.

استيقظنا في صباح اليوم التالي مبكرين استعداداً لاستقبال الرسول الذي وصل في الساعة السادسة بعد أن قطع المسافة بين الرياض والوادي في سبعة أيام على ناقة واحدة يحمل عليها كيسين كبيرين من البريد والأشياء الأخرى؛ لقد كان أدائه ممتازاً. كان الرسول السابق قد استغرق ثلاثة عشر يوماً للرحلة نفسها. لم أضع وقتاً في تقليب محتويات الكيسين اللذين احتويا على كمية كبيرة من لفافات التبغ الكبيرة والصغيرة وعلبة من زيت الكيوسين، ولكن يا حسرتاه لم تكن هناك أفلام. تناولت طعام الإفطار بعد ذلك مع شيء من التطويل ثم استمتعت بالاستغراق في التدخين بعد تسعة عشر يوماً قضيتها دون تبغ، ثم قرأتُ الخطابات المرسلة إليّ؛ في الوقت نفسه كان إبراهيم ورشيد يستلقيان من وراء شجرة بعيدة

يدخنان من علبة لفافات تبغ أهديتها لهما. كانت من بين الرسائل واحدة نقلت إليّ للمرة الأولى أنباء التطوّرات الخطيرة في منطقة الخرمة بعد أن أبلغ الشريف السلطات في مصر فيما يبدو أنّه نتيجة لنشاطات ابن سعود في تلك الأنحاء، فقد اضطرّ لإرسال قوة من الجنود لإعادة الأمن والنظام في الخرمة. سمعت في الأحمر بعد أيام أنّ رجال الخرمة قد بعثوا في طلب العون من قحطان وإخوان عتيبة الموجودين في الرين وفي الغطف، وأنّه قد حدثت استجابة سريعة. وقد دونت في مذكراتي حينها أنه سينشأ وضع حساس إن صحّت هذه الشائعات، وقد تتطور قريباً إلى حرب دينية بين ابن سعود وملك الحجاز. في حقيقة الأمر كان الاشتباك الأول قد وقع بالفعل في يونيو (حزيران)، وتلقّت قوات الشريف التأديبية الهزيمة من سمّاهم المتمردين.

بدأنا الآن رحلة العودة الطويلة متقدّمين نحو حائط طويق البعيد عبر مرتفعات الرمال المتلاطمة المعروفة باسم القعاس. كانت الهضاب الدائرية الصغيرة التي تغطيها شجيرات الراك والغضا تروّح عن النفس قليلاً من النظر إلى الصحراء الممتدة، وكانت لمعظم هذه الهضاب أسماء تمكّنت من تدوينها بفضل مبارك، وهو دليل جديد كان قد لحق بمجموعتنا من الوادي للتعويض عن جهل طويرش الذي كان عديم الفائدة. وفيما أظنّ كان مبارك هو الذي دخل علينا في اليوم السابق من ثمرة حاملاً تلك الأنباء عن وصول أمتعتنا. كان رجلاً قارب الخمسين من العمر مليئاً بالحيوية كما كان صياداً للمارّة، شهدت له بذلك الأنحاء، وكانت له قصص كثيرة عن الصيد في الأيام التي قضاها يجوب آفاق الصحارى، وكان من قبيلة العمور. تسمى إحدى الهضاب التي مررنا بإزائها قوز الحديد، ويبدو أنّ الاسم - وفقاً لرواية مبارك التي يجزم بصحتها-.

لأنه يوجد تحت طيَّات الرمال لوح أو كتلة حديدية أبعادها ثلاثة أقدام في قدمين (٢×٣). من المحتمل أنَّ الرواية تشير لشهاب نيزكي، بيد أنني لا أستطيع أن أؤكد أي تفاصيل حول الأمر، وعلى أي حال لا يمكن أن يكون المعدن- إن كان هناك فعلاً- من صنع الإنسان.

ابتداءً من هذه البقعة وإلى الأمام، تحوَّلت الامتدادات الرملية -التي كانت مسطحة لمسافات كبيرة إلا من وجود بعض الهضاب الصغيرة والتلال التي تتناثر فوق سطحها - تحوَّلت إلى أرض صلبة من حجارة صغيرة سوداء تعلو طبقة رملية. كانت الرمال هنا- مثلها مثل رمال الوادي- تحتوي على بلورات بيضاء صغيرة وكان المكان خلواً من الأشجار إلّا من شجرة سنط منعزلة نزلنا بجوارها في منتصف النهار بعد أن سرنا مسافة تقارب اثني عشر ميلاً. كان الوادي بطبيعة الحال قد اختفى من وراء المرتفعات الرملية وكلَّنا شاهدنا على البعد من جهة اليمين طريق كمدة. وقد عاودنا سيرنا فوق السهل المقفر نفسه مقتربين من حاجز طويق، مارين بأرض رأسية تسمّى خشم كُميح في منتصف الطريق بين خشم طرجم في الشمال التي كانت تعلو مشاش مألحة وبين خشم سواد في الجانب الشمالي لفرجة تمرة. كانت هناك رقعة عريضة من سهل معشب يمتد بين الشمال والجنوب بين الصحراء والجرف، وتغطيه حشائش النصبي والرمث والطرفا - وهي نوع من الأثل المتقزم- والآس. كانوا يسمون هذه الرقعة حيّة وهي كلمة تستعمل كثيراً في الجنوب لتعني السيل أو مجرى السيل، وهي بهذا تشير إلى أنها تصير أحياناً- كما لا بد أنها فعلت في الربيع الماضي مجرىً مائياً يحمل الماء النازل عبر أخاديد الجرف نحو الحوض الرئيس لوادي الدواسر. كان هناك شريط عريض من الأرض

البيضاء المألحة سبحة تجري في وسط الرقعة لتسم المجرى الحقيقي لتصريف الماء. بعد ذلك ارتقينا أعلى مجرى السيول المغطى بالحصباء في شعيب كميح، ثم نصبنا خيامنا في أحد جوانبه في أسفل جرف طويق الحاد.

مررنا ونحن نقطع البيداء بآثار إبل تسير من الشمال للجنوب نحو صقع مقابل في جنوب طويق. صاح أحد رجالنا وهو يقوم بدراسة الآثار: «قوم وركائبهم أربع وما هم رادفين». كانوا قد ذهبوا، فواصلنا سيرنا ونحن نهئ أنفسنا أنه لم يكن هناك احتمال للقائهم. ولكن بعد دقائق قليلة مررنا بآثار أخرى لإبل تمشي في الاتجاه المعاكس. «حشاشين» أي يحشون الأعشاب.

كان هذا اللفظ المقتضب هو النتيجة النهائية لخبرائنا عن هوية من خلّفوا الآثار. وبعد دقائق أخرى نظروا لآثار شخص منفرد، ولكنهم صرفوا التفكير فيه بعد تصنيفه: «قناص من كمدة يجد في طلب غزال». بعدها دخلنا في نقاش حول قصّ الأثر. إنّه لمن المدهش حقاً ما توحى به الآثار على سطح الصحراء لأذهان العرب. والمدهش أيضاً السرعة التي ينتقلون بها من الملاحظة إلى النتائج واليقين الذي يصاحبه، وهذا أمرٌ عجاب وخاصة لا تُضاهى. عندما يسرون تنتقل أعينهم بين الأفق والأرض أسفل منهم ويقومون غريزياً بتحديد السمات العامة للإقليم من حولهم. كما أنّ طبيعة الإقليم تساهم حسيّاً للتعرف على الناس الذين يمرّون به. ثمّ إنّ آثار إبل مسرعة أو مطايا محمّلة بالأنقال أو إبل ترعى كلها من الوضوح بحيث لا يخطئ فيها أهل الصحراء. حداثة الأثر أو قدمه يمكن عن طريقها تحديد الوقت الذي مرّت فيه الحيوانات التي خلّفته. هذه مقدرات العربي العادي، ولكم أن تتخيلوا مقدرات المختصين في هذا الجانب وهم من يمتلكون مقدرات غريزية لقراءة العلامات في الصحراء. وهم يحتاجون لهذه المقدرات خاصة أنهم يسافرون

كثيراً فيتحقق لهم البقاء أحياء وسط الأعداء. تَبَيَّنَتْ من الحديث أَنَّ القبائل البدوية على وجه العموم يمتلكون مقدرات عالية في هذا الجانب، ولكنَّ الريادة فيه لقبيلة آل مرة التي تجوب الربع الخالي. وما يقال عنهم أنهم يستطيعون تحديد لون الإبل من الآثار التي تخلفها عن الرمال، وهناك - فيما قالوا- علاقة بين لون الإبل ونوع السير في كثير من عينات الإبل الجنوبية. كما يعرف سكان الأصقاع الرملية بدقة أكبر من سكان السهول الصحراوية الصلبة.

أمّا في الشمال فإن أفراد فخذ سنجارة التابع لشمر فهم معروفون بمقدرتهم العالية في قراءة الأثر. حكى لنا مبارك: «كان بعض الأعراب يركبون عبر أحد السهول عندما قام أحدهم وهو شيخ من القبيلة بلفت انتباه مرافقيه لآثار ابنته على الأرض وهي تقطع خط سيرهم في طريقها إلى نفود تقع على البعد، تذهب ابنتي هناك لتجمع النصي للإبل قبل عودتنا»، وواصلت المجموعة سيرها، وفي المساء كانوا في طريق العودة ليقطعوا مجدداً آثار البنت في طريق عودتها صاح الشيخ «آه.. ياويلتاه كانت ابنتي في طريقها للنفود صباح اليوم عذراء، ولكنها الآن فقدت عذريتها. أقسم بالله بأنها ستموت جزاء فعلتها الشائنة وسأذبح معها أيضاً الرجل الذي ذهب بشرفها.

تعالوا نبحث عنه لأنّ آثاره ليست مع آثارها». وهكذا قامت المجموعة التي هزّها العار الذي لحق بالقبيلة بالتحرك في اتجاه النفود متبعين آثار الفتاة باحثين عن آثار رفيقها، ولكنهم لم يجدوا له أثراً. وواصلوا المسير نحو الرمال حتى بلغوا الموقع الذي انقطعت فيه آثار الفتاة بالقرب من نباتات صحراوية، إنّه نبات الطرثوث وله اسم فج وهو «زب الحمد». وهنا بكى الشيخ من الفرحه حين علم

== الجزء الثاني ==

أنه رغم قراءته الصحيحة لأثر ابنته في الصحراء، إلا أنه أخطأ في حق ابنته حين اتهمها في عجلة بالزنا، وأخطأ في حقها أيضاً بتأخير زواجها حتى ذلك الحين. لاقت هذه القصة كثيراً من الاستحسان من المستمعين. ولن تكون هناك ملكة تتفوق على هذه في قراءة الآثار في الصحراء.

الإقليم الجنوبي:

بما أنه لم يكن لدينا متسع من الوقت، إضافة لأن رفاقي لم يكن ليَجروا على تخطّي الحدود التي رسمها لهم ابن سعود، كان لا بدّ لي من أن أرضى بما حققته آملاً أن أتمكّن يوماً ما من تحقيق الرغبة المتأججة في داخلي لاخترق الربع الخالي، وهو الذي تمكّنت الآن من تمشيط حدوده الشمالية إضافة للمرور عبر حدوده الشرقية كاملة من الأحساء إلى الوادي. ولم ألتق في كل تجوالي إلا برجل واحد ادّعى بأنه قطع الرمال الجنوبية من الشمال للجنوب حتى بلغ المحيط الهندي، كان ذلك هو جابر بن فرج من فخذ السويحيث التابع لقسم آل بحيح من آل مرة، ورغم أنه لم يكن وحيداً في المرات الثلاث التي قام فيها بقطع الربع الخالي إلا أنني أومن بأنه أول إنسان يقوم بهذا العمل البطولي الفذ. لا يمكننا أن نفترض أنهم يدمنون قطع الصحراء الخاوية من الماء والبشر لمجرد المتعة ولا حتى لأسباب تجارية، إذ أن أسواق الأحساء كانت تمدّهم بكلّ ما كان في وسعهم أن يتتاعوه، ولكنني استطعت أن أستخلص ممّا قاله جابر أن تلك الرحلات بما فيها رحلاته الشخصية لم تكن غريبة على نشاطات القبيلة العادية وهم الذين كانوا منذ أزمان ساحقة ضاربة في القدم يقومون بغارات مفاجئة لجيرانهم قبائل الجنوب: الوهبة والعوامر والدروع بغرض نهب إبلهم الثمينة فرحة وصفر من نسل عينة الإبل «العمانية». بالطبع كانت مثل هذه الغارات تتلقّى الردّ من قبل الجنوبيين كلما دعت الحال، ولا شكّ أنّ من بينهم من رأى نخيل يبرين وهي الأشجار الثابتة الوحيدة لبدو آل مرة.

عندما يُعرف على الربع الخالي تماماً سيوضح أنه لم يكن منسجماً مع الصورة الملونة التي وضعها بعض الرحالة الأوروبيين، أو تلك التي في أذهان الحضر من العرب الذين لم يصلوا قط لرمى النظر منه، دعك من محاولة اختراقه. تقيم في حدود الربع الخالي الجنوبية والغربية القبائل التي أشرنا إليها آنفاً، وهي قبائل حضرموت وقبائل يام نجران، ولكن باعتراف الجميع فإن سادة تلك القفار الرملية هم آل مرة^(١) وهي قبيلة تنتمي لقبيلة يام مثلهم في ذلك مثل آل عرجا وآل شامر وآل مطرة والعجمان. وأقامت منذ زمان بعيد علاقاتها السياسية مع نجران، ويسIRON بطول حدودهم الشمالية مع الدواسر، ولهم الآن تحالف غير محدد المعالم مع ابن سعود بسبب اعتماد اقتصادهم جزئياً على إقليم الأحساء. أقول اعتماداً جزئياً لأن احتياجات قبيلة كهذه توفّيها - إلا قليلاً منها - الصحراء ذاتها، ولا تتجاوز حاجاتهم الحقيقية علف إبلهم وفي الربع الخالي وفرة منه.

أحد أقسام القبيلة السبعة هو قسم آل بشر، وشيخهم الرئيس هو علي بن شريم الملقّب بعلي اللاهوب، ويعد أكبر شيوخ القبيلة كلها ويقطن السهل الجيري المنفرج عن مجرى السهباء بين الأحساء ويبرين وجابر فخذ آخر، وهو الفخذ الذي يحتلّ واحة يبرين والصحراء المحيطة، بينما تتمركز جميع الأقسام الأخرى حول الصقع المسمّى خيران في وسط الربع الخالي، ما عدا فخذ الدمنان الذي تتناثر أفخاذه في خيران وعلى حدود حضرموت وفي جوار نجران.

(١) يعودون بأصلهم إلى علي آل مرة. (المؤلف).

وفخذ البحيح - الذي يتخذ خيران قاعدة له - يجوب الفيافي الشرقية بين الأحساء وقطر في الشمال وعمان في الجنوب. وبستقدير متحفظ يمكننا أن نقول إن حدود القبيلة بكاملها تمتد لحوالي ربع مليون ميل مربع من الصحاري.

تقع واحة بيرين على مسيرة أربعة إلى خمسة أيام، أو حوالي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب من الأحساء بعرض سهل جيري شبيه بالسهل الصحراوي الواقع بين الأحساء والدهناء، والواحة يحفها النخيل، وتُقارن في مساحتها بالأحساء ولكن ليس في كثافة نخيلها، أو خصوبة أرضها، وتقع في واد ضحل بين سلسلتين خفيضتين من التلال. ما استطعت الوصول إليه أنه لا توجد قرى أو مستوطنات دائمة في ذلك الصقع بل قليل من البيوت الطينية والآبار التي يتجمع حولها رجال القبيلة بعد فواصل زمنية متباعدة، وعلى وجه الخصوص في وقت جذاذ التمر إذ أن البساتين التي لا تُسقى ولا يُعتنى بها تنتج محصولاً وفيراً من النخيل التي تسمد طبيعياً عاماً بعد عام لجني ثمارها ولأن أصحابها يهربون من البعوض والمناخ غير الصحي في الوادي ليعيشوا مع إبلهم في قلب الصحراء. وتترك الإبل في بعض الأحيان ترعى في الصحراء مع قليل من رعاة القبيلة بينما تتوجه بقية القبيلة رجالاً ونساءً وأطفالاً لجذاذ محصول التمر ولتخزينه لاستهلاك بقية العام. هذا هو الوقت الوحيد الذي تتعرض فيه القبيلة للمخاطر وتواجه الغارات من أعدائهم القبليين أو من حاكم الأحساء المسؤول إدارياً عن هذه المنطقة، إذ أنهم في بقية العام مُحصّنون ضد الهجوم في معاقلهم تلك المحصنة بالرمال.

يقطع منخفض السهلاء العريض طريق الأحساء في موقع يبعد حوالي خمسين

ميلاً إلى الشمال من يبرين، ويمتد هذا المنخفض بعد أن يفارق اليمامة في الخرج بالقرب من آبار الوسيح في اتجاهه إلى الدهناء. لذا فإنه ولمسافة عشرين ميلاً تختفي معالمه رغم أنه لا يدفن بالكامل تحت الرمال، ولكنه يظهر بعدها مجدداً عندما يعبر الصحراء الجيرية، وبعد أن يفارق وادي الفروق يستمر حتى يقارب الخليج الفارسي الذي كان يصب في مياهه في الأزمان الغابرة بالقرب من نتوء قطر، وذلك عندما كان مجرى مائياً. وتوجد في مهد هذا المجرى بالقرب من تقاطعه مع طريق الأحساء أربعة آبار هي الحن، وبجانبه بستان صغير للنخيل، ثم بئر حرض وبئرين آخرين.

وتفصل يبرين عن صحراء الرمال العظمى مسيرة يوم في اتجاه الجنوب، ويفصلها عن البياض سهل مسطح عارٍ يسمى حريصان، وعن السليل صقع فرشة، وفي وسطها رحلة خمسة عشر يوماً- وفقاً للتقارير- وإلى جنوب الجنوب الشرقي تقع الأصقاع الرملية المستدة التي يسمونها خيران نسبة لتناثر آبار وبرك مالحة بها. هنا موطن الغالبية العظمى من آل مرة الذين يقيمون في مجموعات متناثرة حول الماء. يعيش رجال القبيلة حياة بدائية لآخر حد يمكن أن يتخيله المرء. قطعان الإبل العظيمة تُسقى وتُحلب وتُدفع للذهاب للأمام وسط الرمال بمفردها دون أن يصطحبها الرعاة وتعود بعد خمسة إلى ستة أيام من تلقاء نفسها لتستقي من الآبار المالحة، وكما كان الأمر في السابق فإنها تُحلب وتُدفع إلى الأمام. ويحتفظ باللبن طازجاً أو رائباً في قرب جلدية لاستخدام الناس الذين لا يتذوقون الماء لشهور لأن البشر لا يستطيعون شرب هذه المياه المالحة التي تعيش عليها إبلهم، يعيشون فقط

على التمر واللبن وما يتمكنون من اصطياده. يتحرك الصيادون الذين لا تفتقر لهم همّة مزودين بالحرب والبنادق القديمة، وفي بعض الأحيان بالبنادق الحديثة التي بدأ آل مرة يعرفونها، يجوبون المكان لمدة أيام لا يحملون فيها سوى قرب اللبن لتبقيهم على قيد الحياة. وفي بعض الأحيان يركبون ناقّة حلوب يسعون وراء الأرناب البرية والوضيحي كما يسمونه. وبذا يشتعل الربع الخالي نشاطاً وينالون حظاً من الرياضة ومن اللحوم أيضاً. خلافاً للغزلان فإن الوضيحي تعتمد على نظرها فقط للشعور باقتراب عدو، لذا يمكن للصياد الماهر أن يقترب منها بسهولة نسبية ولكن خجلها من الأشياء الغريبة ليس له حدود ومجرد لمحة لرجل بل مجرد النظر إلى آثار إنسان على الرمال تكفي لتجعلها تقفز وتسرع في الصحراء لمسافة آمنة أكثر من الموقع المحتمل للأذى. وعندما تجرح فإنها حيوان يستحق الاحترام إذ تلقن المتهاونين من الصيادين درساً قاسياً تستخرج فيه أحشاءهم باستخدام قرننها الطويلة الحادة. بعد قتل الوضيحي يقوم الصيادون بنزع الجلد كاملاً وينزعون الأحشاء ثم يملحون الجسد قليلاً ثم يتركوه ليجفّ تحت أشعة الشمس الحارقة، وهكذا يأكلون لحمه نيئاً أو يطبخونه جزئياً في رماد نيران المخيم. ولهم اعتقاد أن أكل وجبة من لحم المارية النئى ولبن الإبل له مفعول قوي على المقدرة الجنسية. كما أنهم يأخذون اللحم المجفف لبيعه في أسواق الأحساء والسليل والوادي، كما يفعلون بالجلود والقرون أيضاً. ويقولون إن اللحم المطبوخ منه له مذاق شهى يقارب في نكهته لحم الغزال المجفف. أما الأرناب البرية والطيور فإنها تؤكل بعد طبخها جزئياً في الرمال.

إن حياة آل مرة الاجتماعية بسيطة وبساطة وجباتهم، كما أن تعاليم العقيدة الإسلامية وواجباتها متبعة الآن بينهم -على الأقل- من ناحية الشكليات، ولكنها لم تتبع إلا حديثاً. كان جابر يتذكر أزماناً لم تكن الصلاة فيها معروفة لهم، وكانت إجراءات واحتفالات الزواج خلواً من أي عنصر ديني، إذ لم يكن هناك مأذون أو شهود. كلٌّ من العريس والعروس مشعابه (عصا الإبل) مع مشعاب الآخر بطريقة رأسية في الأرض بينهما، ثم يدورون حولهما مرتين أو ثلاث مرات وهما يرددان تعبيراً بسيطاً مثل: «لقد ملكنا»، وكان هذا يجعلهما زوجين دون إجراءات إضافية تخول للعريس البناء بزوجه.

كان بعض الفرجات التي تسمى الخرائم^(١) تقاطع امتداد الرمال في إقليم خيران بروايه وهضابه الرملية، وهناك صقع يسمى الجافورة وهو منخفض غطت الرمال المتحركة جزءاً كبيراً منه فيما يبدو. ويقال إن به بقايا مدينة قديمة لا يعرف شيء عن تاريخها رغم أنها قد تكون معاصرة لمدينة وبار التي كانت تقع على بعد مئة ميل أو نحوها في اتجاه الغرب والتي كونت جزءاً من مملكة عاد بن شداد الذي ذكرت قصته آنفاً^(٢). ولم أتمكن من جمع أي تفاصيل عن وبار بخلاف ما يعرف عنها تقليدياً، ويحتمل أن السبب في ذلك أنها لا تحظى بالزيارة إلا إذا شملها فخذ الدمنان التابع لآل مرة في خط سيرهم. ولكن الجافورة بوصفها مركزاً لآل مرة الذين يذهبون للأحساء من وقت لآخر فإنها معروفة أكثر بما يتداول عنها من

(١) جمع خريمة. (المؤلف).

(٢) راجع المتن ص ١٠١. (المؤلف).

حديث . وهناك الكثير من الغرائب التي ترتبط بها . يقال إن الحجارة المتحركة^(١) تأتي من هنا . لقد سبق أن ذكرت شيئاً عن هذا الأمر وأخبرت عن عجز بعضهم من إثبات هذه المقدرة للحجارة في جمع من الناس تجمعوا ضيوفاً على عبدالله بن جلوي . ويقولون إنه يوجد في مكان ما في الجوار في وسط الرمال المحيطة تمثال لجمال معدني بالحجم الطبيعي ويقولون إن الرياح التي تهبّ تزيح بعضاً من الرمال المتراكمة لتظهر في بعض الأحيان بقايا أعمال يدوية تعود لعهود قديمة ، وأجزاء من تماثيل مثل رأس مفصولة أو يد أو حجر مصنوعة من الحجارة أو الرخام . لكنّ أكثر ما يخشاه المرء هنا هو الجنّ أو الأشباح التي تتراد المدن المدفونة ، وقد يسمعونهم في الليالي العاصفة وهم ينوحون بطريقة تدعو للشفقة على المصير الذي حلّ بمشاهد حياتهم السابقة . ولقد أكدوا لي أنّ من يجرؤ من ضعاف العقول على الاقتراب من تلك المنطقة ليلاً يصيبه الجنون من الخوف . لا بدّ أنها بقعة مخيفة تلك المدينة الميتة البعيدة عن الإدراك البشري ، وقد تكون البرك المألحة حولها هي كل ما تبقى من واحة عظيمة ازدهرت في الأيام الخالية قبل أن تحتاحها الرمال لتزيلها من خارطة جنوب الجزيرة العربية . كانت رغبتني - إن قدر لي أن أزور الأحساء مجدداً- أن أقوم بمزيد من التحقيقات حول هذه الأمور وأن أتحصل على عينات من البقايا الموجودة في الجافورة بسبب ما سمعته من قصص حولها ، لكنّ هذه الفرصة لم تسنح لي ، وآمل أن يتمكن رجل أكثر حظاً مني يوماً ما من التحقق من مصداقية من أخبروني عنها .

(١) راجع الجزء الأول ص ٩٥ . (المؤلف) .

لم أتمكن إلا من جمع القليل من المعلومات عن الحدود الجنوبية للربع الخالي، حيث يتاخم الحدود الجبلية لعمان من جانب، وحضرموت من الجانب الآخر. وما عرفته هو أن قبائل تلك الفيافي لم يتزحزحوا إلا قليلاً عن الحياة الهمجية البربرية المحضة، وأكثرهم بربرية هم العوام الذين يقال إنهم لا يرتدون من الملابس إلا النزر اليسير ويعيشون بالكامل على لبن الإبل ولحم المارية. بيد أن الجانب الغربي من الربع الخالي تجري نحو رماله مجاري السيول من جبال اليمن، وحيث إن قبائل يام يتحركون من مركزهم في إقليم نجران فيسيرون مع آل مرة. وحول هذا الجانب تمكنت من تجميع كثير من المعلومات رغم أنها معلومات هلامية وغير دقيقة، جمعتها من كثير من الأشخاص الذين التقيت بهم خلال هذه الرحلة وأثناء إقامتي في بقاع مختلفة بطول مجرى وادي الدواسر.

لقد ذكرت من قبل أن الوادي يصل إلى حدود الربع الخالي في موقع يبعد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من السُّلَيْل، ووفقاً للتقارير فإن ذهبنا لمسافة مشابهة من نفس الموقع إلى الجنوب الغربي سنجد أن الامتداد الجنوبي لمرتفعات طويق يندفن تحت الرمال المتحركة في صقع يسمى المندفن. وفي منتصف الطريق بين المندفن ومجرى الدواسر ينصدع الحاجز إلى جزأين بواسطة مجرى مائي مشابه للوادي يسمى الفاو وينحدر من الجبال الغربية ثم يجري نحو الشرق لينتهي أمره في الرمال. تقع سلسلة جبال اليمن إلى الغرب من هذا الموقع وتتخلل منحدراتها الشرقية واحات غنية في تلك السهول البائسة، وتنتهي هذه المنحدرات أيضاً لتبتلعها الرمال. أما أودية تليلث وبيشة ورنية فتندحر عبر مرتفعات عسير لتكوّن وادي الدواسر بالتقائهم في السهل. هذا هو الهيكل العاري للصقع وبقيت التفاصيل لتعطي الصورة كاملة. هذه الأماكن -ولحدّ كبير- لم يزرها أي أوروبي،

== قلب الجزيرة العربية ==

وهناك فقط نجران التي رآها ووصفها جوزيف هالي في عام ١٨٧٠م، ومعلوماتنا عن هذه المناطق تعتمد على المعلومات التي جمعها -من غير مصادرها الأولية- رحالة أكثر من الاستفسار عنها في رحلاتهم لجهات مختلفة من الجزيرة العربية.

الشيء الذي أستطيع تأكيدُه هو أنَّ الواحات التي تنتشر في وادي رنية يسكنها في الغالب مستوطنون من قبيلة سبيع مع جماعات متناثرة من قحطان والدواسر، بينما تسكن أودية تثليث وبيشة والجبال التي تقع خلفها على سبيل الحصر تقريباً قحطان، وهم قبيلة تتمتع قسمها الذي يسكن المرتفعات باستقلال شبه تام تحت إدارة اسمية هلامية من الأتراك مركزها أبها. ولكن في السنوات الأخيرة صار هناك اتجاه لأن يدين أهل هذا القسم بولائهم لابن سعود الذي تدين له بالفعل أقسام القبيلة التي تعيش في صحاري نجد، من حدود جبالهم حتى الرياض نفسها: وأيضاً في اتجاه الشرق. وهناك حقيقة لا جدال فيها وهي أنه خلال إقامتي في الجزيرة العربية كان هناك قدر ما من الاتصال بين أمير قحطان وابن سعود فيما يختص باقتراح قدمه الأول لأن يمتد النفوذ السعودي في اتجاه الغرب نحو الجبال، وفي نفس هذا الوقت كان الأمير يتقاضى مرتباً من الأتراك.

يمكن بلوغ مستوطنات رنية بسير غير متعجل في خمسة أو ستة أيام من واحة الوادي. ويمرّ الطريق من وادي الدواسر عبر رابية تسمى حُلّة ثم يمرّ عبر شريط رملي نحو الريانية التي يمكن بلوغها بعد ليلة أخرى. وبالسير ليوم آخر عبر سهل تقاطعه كثير من روافد الأودية الكبيرة الثلاثة، يصل المرء إلى جبل الباقر، وبعدها يتابع مجرى رنية عبر مجموعة من الآبار تسمى رغوّة، حتى بلوغ ريجّة، وهي

أول مستوطنة وبها قليل من القصور وحقول حبوب مجرى رنية. بعدها يمرّ المرء بسوق المراغين وهي قرية صغيرة بها نخيل، ثم الشميسات، وهي مجموعة صغيرة من المزارع وسط النخيل، ثم قرية الضرم ونخيلها، وبعدها العملة، وهي المستوطنة الأخيرة والأكثر أهمية بالواحة وهي مدينة صغيرها يسكنها ٢٠٠٠ من السكان. وبتابع مجرى رنية لمسافة عشرة أميال إلى الأعلى من هذه النقطة يمرّ المرء بأطراف بعض الجبال السوداء- لعلّها حرة نواصف -حتى بلوغ وادي تربة بمواصلة السير ليومين في اتجاه الشمال الغربي من العملة. وفي مهد وادي تربة واحة ممتدة تحمل اسمه، ويبعد الوادي مسيرة يومين أيضاً في اتجاه الجنوب الغربي من الخرمة التي تقع في امتداد الوادي نفسه بعد أن يتحول اسمه إلى وادي سبيع. في حقيقة الأمر يرى سعد، وهو أحد مصادر معلوماتي، أنّ وادي تربة ماهو إلا رافد من وادي رنية وليس امتداداً لوادي سبيع، ولكنّي أثرت في هذا الشأن أن آخذ برأي آخرين أرى أنهم أجدر بالثقة منه، وتركت المسألة عند هذا الحدّ حتّى يحاول رحالة أوربي آخر قطع الشك باليقين.

يجري الطريق من الوادي إلى واحة بيشة في اتجاه غرب الجنوب الغربي مروراً بروابي مطيعان وأبرق المجاريب وبعرض سهل تحفة الهضاب، نحو مجرى تثليث الذي يقطعه الطريق في نقطة تبعد حوالي خمسين ميلاً غرب الوادي. ثم يقطع الطريق شريطاً متموجاً عرضه حوالي عشرين ميلاً. وفي هذا الشريط توجد مجموعتان من الآبار في مهد الشعيب: حيّة ومكّه، وتفصل بينهما أميال ثلاثة، ثم يبلغ الطريق سفح وقر الحمر وهي سلسلة عالية من الجبال تفصل وادي تثليث عن وادي بيشة، ثم يرتقي الطريق هذه السلسلة. ويوجد بعد ذلك صقع رملي متموج الرمال تحزه عدد من الشعاب التي تنحدر من سلسلة تلال الراك التي تتوافر

المياه على قممتها من مجموعة قوامها خمسة عشر ثقب ماء . وهناك شريط سهلي عارٍ آخر يؤدي إلى منخفض محدد المعالم ، والطريق يؤدي إلى حيث يلتقي هذا الشريط مع وادي بيشة نفسه ، وقبل هذا الملتقى بقليل يقف جرف عالٍ يسمّى خشيم الذيب . كما توجد في هذا الموقع أيكّة ممتدة من شجيرات الحلفا والطرفا كما كانت تحدّها من ورائها أشجار النخيل التي كانت تفصل فيما يبدو بين سلسلة الجبال وبين التلال السفحية ، وكان الطريق ينحدر منها بتمهل حتى يصل إلى النمو النباتي الكثيف في المهد . ويتابع الطريق الآن المجرى في انحداره مروراً بالمناطق المختلفة التي تكوّن واحة بيشة . هذه المناطق هي : الروشن وتتكون من قرى : النخيل النقيع التي تحتوي على قلعة عالية تسمّى قصر بني ثور ، وقرية الجنية وهي أكبر المناطق . وبعد هذا يشقّ الوادي السهل متفرعاً إلى روافد متعددة لتلتقي جميعاً مع رنية من جانب ، وتثليث من جانب آخر ، ثمّ يمتد الطريق إلى باجر والريانية ، ومن هنا رجع سعد الذي كان قد زار هذه المستوطنات متتبّعاً الطريق الذي وصفناه . ثم قفل الرجل عائداً إلى داره في وادي الدواسر بعد أن قضى ستة عشر يوماً في هذه الرحلة الدائرية التي كان يمكن أن تقطع في عشرة أيام ببذل جهد أكبر .

كان سعد قد زار أيضاً واحة تثليث سالكاً طريقاً في اتجاه الجنوب الغربي من الوادي عبر سلسلة تلال برايم البيض ، ثم إنّه قطع مجرى تثليث في آبار الريان بعد مسيرة خمسة وخمسين ميلاً . كان تتبّعهُ لمجموعة آبار كيف الواقعة على بعد أميال قليلة أعلى المجرى قد قاده إلى قرى وبساتين نخيل جاش وقنّة الواقعة إلى يمين المجرى الرئيس ، بيد أنّه مرّ بهذه القرى ولكنه لم يتوقف بها ، ثمّ سار إلى آبار أفازة التي بلغها بعد مسيرة يوم قصير ، وتقع من ورائها القرية الكبيرة حمضة

بسكانها البالغ عددهم ١٥٠٠ نسمة. وبمسيرة يوم مشابه أعلى المجرى، بلغ مستوطنة عمق وهي أكبر مستوطنات المجموعة وتقع في حوض كبير تتناثر فيه القصور وبساتين النخيل، وهذا هو مصدر تثليث فيما ادّعى، رغم أنني أتصور أنّ مصدره غير هذا، بل حيث تلتقي ٣٠٠ من مجاري السيول النازلة من الجبال المحيطة لتختلط مياهها فيصدر بعدها تثليث. تقع مدينة خميس مشيط^(١)، المدينة التجارية الناهضة خلف الجبال من الناحية الغربية فوق هضبة عسير. إنّها أعلى ارتفاعاً من أن تُزرع بها النخيل.

كانت الأودية تنحدر من الجبال على أبعاد متقاربة إلى الجنوب من تثليث، ولقد سمّي لي حسن ما لا يقل عن سبعة عشر منها بين تثليث وبين وادي الجوف العظيم الذي توجد به بقايا سد مأرب الشهير ونواة أودية حضرموت في اتجاه الربع الخالي. بعض هذه المجاري المائية تتجمع دون شك لتكوّن مجرى الفاو الذي شقّ طريقه عبر حاجز طويق. ولكن معظم هذه المجاري لا جدوى كبيرة لها، وليس يستحق الذكر منها سوى اثنين هما حبونا ونجران وهما من الأودية الثرية الخصيبة و«معروفة بأنها آخر معقل للمسيحية في الجزيرة العربية». ويمتد المنخفضان اللذان تفصلهما هضبة خفيضة جنباً إلى جنب في اتجاه الشرق نحو الرمال حيث ينقطع أثرهما^(٢). وفي كلا المنخفضين توجد واحات كبيرة مزدهرة تضمّ قرى عديدة يسكنها شبه البدو من

(١) هناك طريق من هذه المدينة للوادي عبر جاش، وفي الوسط تقع طريب على مسيرة يوم ونصف، والصبيخة على مسيرة يوم من خميس مشيط، وعلى نفس المسافة من جش. (المؤلف).

(٢) كان الظنّ أنّ حبونا هو رافد من وادي الدواسر، ولكنّ هذا غير صحيح دون شك. ويقال إنّ وادي نجران يصبّ في وادي يُسمّى عفتانة أو عفتان ومن ثمّ في الرمال، ولكن كل التحريّات التي قمت بها لم تسفر عن معلومات في هذا الإطار سوى أنّ وادي نجران يجري إلى أن يندفن في الرمال. وأنا أظنّ أنّ اسم عفتانة قد يكون اشتقاقه من تعبير كهذا مع بعض التحوير. (المؤلف).

رجال القبائل . ومن هذه المنخفضات أيضاً تجرى غدران مائية لا تجفّ طوال العام تقريباً . هذه هي المنطقة التي يشير إليها أهل الوادي باسم نجران ، والتي يتحدث عنها أهل الوادي الفقراء بفخر على أنّها مركز الحضارة والثراء رغم أنّها لا تعدو أن تكون مجموعة واحات مزدهرة بعض الشيء لكن إمكانياتها محدودة ، ومعظم سكانها لا يزالون يجوبون القفار مع قطعانهم .

تحتل نجران موقعاً تجارياً مميزاً في جزيرة العرب ، وتعد ميناء الصحراء ، ويقصدها تجار جنوب نجد ليبْتَاعوا بُنَّ اليمن والبضائع الثمينة باستبدالها بالأقمشة الهندية والضرورات الأخرى الموجودة في المدن الداخلية . وتلتقي هنا عدّة طرق ؛ طريق يسير في اتجاه الجنوب ، من الجوف ، وطريق من سعدة الجبلية ، وطريق من حضرموت ومن السُّليل ومن الوادي . فالطريق من السليل يعبر المنحدرات الشرقية لطويق في منخفض به بئر واحدة تسمّى الحسّي بالقرب من وادي الفاو العريض الذي قد يجري بالماء في موسم السيل خاصة في منخفضات القلعة . بعد ذلك تنحدر حتى يختفي منها الأثر في الرمال التي تعتمد مناطقها على مياه من الآبار المنعزلة في شعيب حما وشعيب وريك . إنّه لطريق جدّ طويل ومرهق ، والمسافة الممتدة بين حاسي وحما يرهق القوافل المثلثة بالبن في فصول الجفاف ، كما أنّها موبوءة بقطاع الطرق النهابين . وكلّ هذا ينطبق على الطريق القادم من الوادي الأندى ، أي أكثر ماءً . هذا الطريق يمرُّ عبر آبار وعيفرة وعددها اثنتا عشرة أو نحوها وتقع في منخفض على مسيرة يوم ، وهناك آبار وجيد بعد مسيرة يوم آخر ، وهناك بئر سحب وحيدة في وادي القري الذي ينحدر من المرتفعات ليجري نحو حبونا عبر أودية نجد وحما الخاليين من الماء واللذين يتّجهان شرقاً ، وكلاهما ينحدر من جبال الغرب .

لعله من الصعب تقدير تعداد سكان صقع نجران -حبونا. ولكن اليقين أن السكان المقيمين منهم والبدو يزدون بكثير عن سكان وادي الدواسر. ولعل أهل يام هم أهم التجمع القبلي المتحالف الرئيس في هذا الصقع. والقبائل الموجودة الآن هم فروع للأصل الذي بقي في المكان، وهو الأصل الذي نتج عنه كثير من القبائل الموجودة الآن بنجد. وإذا استثنينا أقسام القبيلة التي نمت فصارت في مصاف قبائل كاملة نجد أن كل المجموعات تدعي انتساباً ليام من جد يعرفونه محلياً باسم وعيل. ويبدو أن القبيلة مقسمة إلى ثلاث مجموعات كبيرة: السليمان والفاطمة والمذكر، وهذه تنقسم إلى الأقسام المعروفة الآن. لم أستطع أن أعرف ما إذا كانت المجموعات المستقرة في القرى من الأقسام القبلية تحتفظ باستقلالها كما هو الحال مع أقسام الدواسر، أم أنها اختلطت وتلاحمت كما هو ملاحظ في مستوطنات وسط نجد. ولم أعرف أيضاً ما إذا كانت القرى تدين بالولاء لحاكم واحد، رغم أنني استنتجت من محادثتي مع سمعان وحسن وآخرين من خلال إشاراتهم للتباين في المعتقدات الدينية السائدة بينهم وخرجت بانطباع أن قرى نجران تتباين وتحتفظ بهوياتها المستقلة كما هو الحال مع الأجزاء البدوية منها، وأن الرابط الوحيد بينهم هو تحالفهم من أجل البقاء عندما يحدق الخطر من عدو مشترك، وهو أمر يضمنحل وينزوي بزوال الخطر. إضافة لأنهم يتقاتلون أحياناً فيما بينهم كما يفعل العرب.

إن كان لنا أن نختار قسماً يحظى بوضع مهيم وسط الأقسام الأخرى لعلو المرتبة فلعله يكون قسم مهشل وزعيمه محمد بن سجوة - الذي ينتسب لأمه كما يحدث كثيراً في الجنوب - واشتهر بأنه زعيم قوي. إن توحد العقيدة في نجد يؤدي دوراً كبيراً في حفظ القانون والنظام، ولكن تختلف المعتقدات الدينية والممارسة في

نجران فتؤدي دورها في تباعد الوحدات القبلية. وفيما يختص بالقضايا الإيمانية يبدو أن كل رجل منهم قد اختط لنفسه منهجاً خاصاً به إذ أن الأقسام المختلفة تظهر الفرق في داخلها في هذه الجوانب وضوحاً كبيراً. لذا فإن أي محاولة لتصنيف الأقسام القبلية على أساس المناهج الدينية أمر غير مستطاع، أي أن الاختلافات هي بين الفرد والآخر داخل الوحدة القبلية نفسها. وتحفظ بعض المجموعات بشيء من عبادات العهود الوثنية، إذ كانوا مع عبادتهم لله يذهبون لجبل في منطقتهم يُسمى صلاح، ينحرون في سفحه الذبائح ويضعون السمن وغيره لتستهلكها أشعة الشمس الحارقة. لقد استطاعت العقيدة السلفية بفضل ما بها من منطق الدعوة للإصلاح أن تجد بعض القبول بين أفراد هذه الأقسام، ثم بدأت تتغلغل في السنوات الأخيرة في كثير من أقسام المجموعة القبلية، وخاصة بين أقسام رشيد وفهاد. وليس أدل على اتباعهم للنهج السلفي من قبولهم للاحتكام في خصوماتهم لمحاكم ابن سعود بالوادي. وهناك أقسام أخرى حدث لها هذا التحول.

إن انتشار هذا التوجه نحو العقيدة السلفية في بقية الأقسام يمهّد - بلا شك - لنفاذ أكبر لسلطة ابن سعود في الجنوب، وهو ما سيؤدي لكثير من الاستقرار والأمن في الجنوب، الذي ظلّ محروماً منها. ولعلّ موضوع التحوّلات المتوقعة في المعتقدات الدينية في المستقبل القريب لنجران يستحق دراسة دقيقة من باحث مهتم بمستقبل الجزيرة العربية. يختلف مذهب البياضية عن المذهب السلفي في إغفالهم للأذان ولصلاة الجماعة. ولعلّ من عجائب المذهب الإسماعيلي - من جانب آخر - هو إحلالهم عبارة «حيّ على خير العمل» محلّ عبارة «حيّ على الصلاة» في الأذان، وأيضاً إغفالهم للترديد الجماعي لكلمة «آمين» عقب فراغ الإمام من قراءة سورة الفاتحة في صلاة الجماعة.

== الجزء الثاني ==

هذه هي نجران. أمّا عن الجوف مركز حضارة السبأين القديمة، وسدّ مأرب الشهير الذي أدّى انهياره في الأيام الخالية إلى دمار واسع الانتشار بين القرى التي كانت مزدهرة في الجزيرة العربية، وعن هذه المدينة لم أسمع إلا شائعات هلامية وأنها تقع في بلاد بعيدة.